طبيب عبر الزمن

نظرات تشخيصية في التاريخ والأدب والتربية

منصور سمار الجابري



العبيكان
obeikan

طبيب عبر الزمن

نظرات تشخيصية في التاريخ والأدب والتربية

منصور الجابري



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطبعة الأولى

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥



فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ثمت زوايا كثيرة في تاريخنا العربي يلفها الغموض، وتتناولها كتب التاريخ والأدب بشكل يثير التساؤل، وبطريقة تبعث على الدهشة، ولكنها قل أن تروي غليلًا. وليس هذا الأمر سيئًا دائمًا، بل كثيرًا ما كانت هذه النقاط الغامضة ميدانًا تتبارى فيه الأقلام، ويتسابق فيه الكتاب لبيان وجه الحقيقة، الذي يتوارى خلف بضعة أسطر، كتبها مؤرخ أو رواها أديب.

وقد تختلف هذه الزوايا باختلاف القراء أنفسهم، فما لا يسترعي انتباه أحدهم يراه الآخر لغزًا محيرًا يكتنفه الغموض.

ولم أكن بدعًا من هؤلاء القراء، بل ثمت العديد من الأسئلة التي كانت تسترعي انتباهي، وتثير فضولي في أثناء القراءة في كتب التاريخ والأدب. فعلى سبيل المثال لا الحصر: كنت أتساءل عند قراءتي لقصة وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سبب موته. وهل يمكن للسم أن يبقى كامنًا في الجسم لمدة أربع سنوات، ثم ينتقض فجأة على هيئة حمى تلحقه بالرفيق الأعلى في أقل من أسبوعين؟ هل من تفسير علمي يقبله الطب الحديث، يشرح ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن قصة وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟



وكنت أتساءل كلما قرأت سيرة هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف عرف الطبيب جبريل أن الخليفة لا يجاوز ثلاثة أيام، ولم ير إلا ماء الرشيد في قارورة؟ ثم ألا يمكن أن تربط الأعراض الواردة في الروايات التاريخية بمرض معروف، يفسر جميع الأحداث، ويؤلف بينها.

وهذا أبو الطيب المتنبي قد وصف الحمى التي ألمت به في مصر وصفًا لا مزيد على بيانه، أفلا يمكن تحديد نوعها ومسببها، ولو على وجه التقريب؟

وأي داءٍ حل بابن الرومي حتى اغتال واسطة عقده، ثم أتبعه بأخويه الآخرين، وهم صبية صغار؟

تساؤلات ملحة كانت تتوارد على خاطري كلما سنح الوقت لي بقراءة شيء من كتب التاريخ أو كتب التراجم والأدب. ولا أنكر أن طبيعة التخصص قد أثرت على نوعية هذه الأسئلة والإشكالات، وإن كان بعض هذه التساؤلات قديمًا قدم القراءة نفسها، بل كان يرد عليَّ قبل دخول كلية الطب.

ومع أن معظم الشخصيات التي تدور حولها الأسئلة تعد شخصيات محورية في تاريخنا العربي والإسلامي، إلا أنني لم أجد في المكتبة العربية ما يطمئن إليه القلب، وترتاح إليه النفس. ولا

أزعـم أنني قد استقصيت جميع ما كتب حـول هذا الموضوع، ولكن هذه الشخصيات من الشهرة بمكان، بحيث لو كتب عنها على غرار مـا كتبه الغربيون عن سبب وفاة نابليون أو الإسكندر الأكبر لعرف واشتهر[١].

ولم يـدر بخلدي -علـم الله- أني سأتجشم عناء هذا الطريق على قلة سالكه ووعورة مسالكه. ولكني وجدت الأثر حسنًا في نفوس الطلبـة في أثناء التدريس في كليـة الطب عندما نربط لهم أعراض الأمراض بقصة من قصص التاريـخ والأدب. فهي ترسخ المعلومة في الأذهـان من ناحية، وتوقظ حس الانتماء إلى مأثورنا الحضاري العظيم في نفوس الطلبة من ناحية أخرى.

وقد أشار عليَّ بعض الفضلاء أن أوثق هذه المعلومات في كتاب، يلـم شتاتها، ويقرب بعيدهـا، فشرعت في التأليـف، مستعينا بالله متـوكلًا عليه. وقد بذلت وسعي لكـي يجمع الكتاب بين متعة الأدب، وفائدة التحقيق العلمي، بالإضافة إلى المعلومة الطبية الموثقة، التي تساهم في رفع الوعي الصحي بطريقة سلسة ومبتكرة.

---

(١) ثمت عدد لا بأس به من الكتب المعاصرة التي تناولت تاريخ الطب عند العرب والمسلمين، وقد يشير بعضها إشارات عابرة إلى هذا الموضوع، ولكنها أقل من المأمول على أي حال. ويجـدر بالذكر هنا أن عمدة هذه الكتب هـو «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعـة المتوفـى سنـة ٦٦٨. وهذا الكتاب علـى جلالة قدره وندرتـه في بابه، لم يحقق تحقيقًا يليق به!

خطة الكتاب:

ينقسم الكتاب إلى سبعة فصول مستقلة عن بعضها، بحيث يختص كل فصل بشخصية معينة، أتناول فيه قصتها، ثم تحقيق سبب وفاتها أو مرضها. ثم أتبع ذلك ببند مستقل، أتحدث فيه بإيجاز عن المرض المذكور، وربما أتبعت ذلك ببند آخر، أتناول فيه إلماحة تربوية، أو ومضة علمية مستلهمة من وحي القصة.

وقد رتبت فصول الكتاب على حسب درجة الوثوق من تشخيص المرض، فبدأت بقصة هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتوافر الروايات التاريخية، ودقتها في وصف أعراض المرض، بالإضافة إلى وجود فحص أساسي، استخدمه طبيب الخليفة، لمعرفة مدى خطورة المرض على الحياة.

أما قصة المتنبي فقد جاءت ثانيًا لدقة وصفه للحمى، التي اعتادت زيارته كل ليل، وبيانه لأعراضها بيانًا يصلح مادة لدراسة التاريخ المرضي. ثم أتت بعد ذلك قصة ابن الرومي، لأنه نص على اسم المرض وسبب الوفاة في قصيدته الرائعة، التي رثى بها ابنه. ثم تلتها بقية القصص مرتبة على وفق السبب المذكور.

ويحتوي كل فصل على أربعة بنود:

أولًا: القصة:

آثـرت أن أكتـب كل قصة بأسلـوب أدبي، يقترب مـن أسلوب الروايـة التاريخيـة، التي تستوعب أحـداث التاريـخ بأمانة علمية، وتوظـف الخيال لإعادة تشكيـل الصورة التي كانت عليها الحياة في زمـن القصة، بينما تأتي الحبكة الفنيـة، لكي تقوم بتوزيع الأدوار، ومـلء الثغرات في هيكل الحـدث الروائي. ولا يمنـع هذا من وجود بعضـ السياقـات، التي اقتضت أن تكون الكتابـة: إما سردية تلتزم النصـ الحرفي للتاريخ، أو تحليلية تهدف إلى إيصال المعنى للقارئ بشكل مباشر.

وينبغـي أن أشـير هنا إلى أنني لم أعمـد إلى استقصاء جميع الجوانب المتعلقة بالقصة، بقدر ما أهدف إلى التركيز على موضوع الكتـاب الأسـاسـي، وهـو الحالـة الصحية لبطـل القصـة بشقيها الجسدي والنفسي.

ثانيًا: تحقيق سبب المرض:

على الرغم من صعوبة الأمر بسبب ندرة المصادر والمراجع، التي تعنـى بوصف الأعراض المصاحبة للمرض، إلا أني قد بذلت جهدي في استقصـاء مـا توافر بين يدي من كتب السنـة والتراجم والأدب والمعاجـم وكتب التاريـخ ودواوين الشعراء وشروحهـا مع الاستعانة

بمحركات البحث لاستكشـاف المؤلفات المعاصرة. ثم اخترت عددًا من القصص يترجـح عندي أن تشخيص مرضهـا ممكن اعتمادًا علـى المعلومات المتوافـرة. واقتصرت من ذلك علـى سبع قصص، تأكـد عندي أن التشخيصـ المقترح يدخل- علـى الأقل- ضمن ما يسمى طبيًّا بالتشخيص التفريقي» أو (Differential Diagnosis). وقـد استبعدت العديد من القصص بسبـب عدم الثبوت، أو ضعف الدلالـة، أو بسبب تعارض الأعراض المذكورة في الروايات، بحيث لا يمكن أن يستدل بها على مرض معين.

ومن المعلوم بداهة أن الطبيب قد يخطئ في تشخيص المرض، والمريضـ حاضر بين يديه، فكيف بمن اقتحم غمار الزمن، واعتمد على مصادر قد كتبت قبل مئات السنين.

ثالثا: إضاءات طبية:

يهـدف هذا البند إلى إثراء القارئ بمعلومات طبية موثقة عن المرضـ، قد كتبـت بأسلوب سهل يستفيد منـه المتخصص، ويفهمه غير المتخصص.

رابعًا: إلماحة تربوية أو ومضة علمية:

وقد جعلت هذا البنـد بمثابة المساحة الحرة، التي أطرح فيها بعضـ الآراء التربوية، أو أشير إلى بعض الفوائد العلمية المستوحاة

مـن القصة. وقد حرصت قدر الإمكان أن تكون الموضوعات جديدة وغير مكررة، وأن تكون في دائرة اهتمام عامة القراء.

وختامًا إني لأرجـو أن يجد القارئ في هذا الكتاب أدبًا يسليه، وتحقيقات علمية تفيده، وإضاءات طبية تنمي ثقافته الصحية.

ولا يفوتني أن أشكر كل من أسدى إليَّ نصحًا في أثناء التأليف، وكل مـن شجعنـي علـى إكمـال الكتـاب، وأخـص بالشكـر كل من البروفيسور شهاب المشهداني رئيس وحدة أمراض الدم بكلية الطب بجامعة الملك سعود، الذي قرأ أغلب التحقيقات العلمية والإضاءات الطبية، وصوب عليها تصويبات مفيدة، والدكتور عبدالكريم ساجي الأستاذ المساعد بكلية التربية في جامعة المجمعة، الذي قرأ مسودة الكتاب كاملة، وعلق عليها تعليقات نافعة.

والله ولي التوفيق.

كتبه

د. منصور الجابري

الرياض- المملكة العربية السعودية

تقديم[١]

تأسـرني جدًّا طريقة نداء الإخـوة في بلاد الشام للطبيب: «يا حكيـم»، وأتسـاءل دومًـا: من الذي فـرغ مهنة الطـب العظيمة من أهـم ما فيها: الإنسانية؟ من الذي حوَّل الطبيب والممارس الصحي بشكل عـام من «الحكيم» إلى مجرد رقـم في إدارة شؤون الموظفين في مستشفى؟

هـل هـي المادية التـي التهمت حياتنـا؟ هل هـو المجتمع الذي همش دور الطبيب وحجره في زاوية ضيقة؟ هل هم الأطباء أنفسهم الذين سمحوا لمهنتهم أن تختصر في وصفة وفاتورة؟

نحن أمام تحديين عظيمين:

التحدي الأول: هو إعـادة دور «الحكيم» إلى مهنة الطب، هذا الدور التاريخي الذي بدأ يندثر، الدور الذي يحتاجه المجتمع بشدة.

«الحكيم» الذي ينظر إلى المريض روحًا وجسدًا وعقلًا، يعتنـي بكل ذلـك ويـوازن بينها، «الحكيـم» الذي يراعي ظـروف المريض ووضعه الاجتماعي، ويفكر في تفاعل هذا المريض مع من حوله، ومع مجتمعه الكبير، بل ومع البيئة المكانية والزمانية التي حوله.

---

(١) بقلم أ.د: أيمن عبده، الأمين العام للهيئة السعودية للتخصصات الصحية.

إن إعـداد طبيب أو ممارس صحي بهذه الصفة أمر في منتهى الصعوبـة. ذلك لأنه بحاجة ماسة إلى مجموعة كبيرة من المعارف والمهـارات، التي لا بـد أن يتقنها ويتدرب عليهـا، لتأهله لهذا الدور الكبير. هذه المعارف والمهارات ليست في كتب التشريح ولا الجراحة، بـل في كتـب علم النفـس وعلم الاجتمـاع وعلوم التواصـل والإدارة والأدب والشعـر، هنـاك تلتقـط، وفي أروقـة المستشفيـات وغـرف العيـادات يتم التدرب علـى ممارستها، وفي عقـول وقلوب وأجساد المرضى يتم تطبيقها بمهارة ومهنية عالية. وهذا تحد كبير جدًّا.

التحـدي المقابل هو ترسيـخ المهنية، فمهنة الطـب لها قواعد وأصول وضوابط، لا بد أن تراعى، لأنها متعلقة بحياة الناس، والخطأ فيهـا قد تكون عواقبـه وخيمة. هذه المهنية فيهـا الكثير من الحزم والانضباط، والقليل من مساحـات الحرية والإبداع غير المنضبط، فليس من المعقول أن تكون أرواح النـاس مجالًا للاجتهادات والأفكار غير المجربة.

بـين هذين الحدين، أمام كليات الطـب والتمريض والصيدلة وكافة التخصصات الطبية مهمة شاقة، وهي أن يكون هنـاك توازن دقيـق في إعـداد الممارسـ الصحي، ليتخـرج لنـا «ممارس مهني حكيم».

بين يديك في هذا الكتاب مساهمة رائعة من أخي العزيز الدكتور/ منصور الجابري، لإعداد وجبة ملونة. وجبة أعدها أفضل استشاري التغذية، ثم طهاها أفضل طهاة باريس، ثم قدمت بأحسن مطعم في العالم.

أخذنا في رحلة ماتعة مع هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم طار بنا على بساط الريح إلى عمنا المتنبي، ومن بعده ابن الرومي، ثم توقف بنا في طيبة الطيبة عند حدث تاريخي، لعله الأهم في حياة كل مسلم، وهو وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم عرج بنا على عالية نجد، حيث التقينا بعامر بن الطفيل، وختم جولته بنا -وليته ما ختم- بأبي لهب والمخبل السعدي الذي كان يرى الرجل رجلين.

وكان في هذه الرحلة (تشارلوك هولمز) حينًا، والعقاد حينًا آخر، في أسلوب أدبي شيق رشيق، وجرعة موزونة جدًّا، مشبعة غير متخمة، من بهارات السياسة، وأعشاب التاريخ، ولفائف الأدب، وخفائف الشعر.

أعتقد أن هذا الكتاب -بل هذا المنهج كله- الذي ينبه الممارس الصحي بأنه «حكيم»، ويذكره بأن دوره في الحياة هو رعاية الإنسان فكرًا وعقلًا وروحًا، والتفاعل معه في كل حالاته وتقلباته، وأنه ليكون كذلك فلا بد أن يزيد حساسية جهاز الإنسانية عنده، لالتقاط الذي

لا يقــال، ورؤيــة الذي ليس عليه ضــوء، وعليه أن يفتــح قلبه وعقله لمجموعة من المعــارف، ويتدرب على مجموعة مــن المهارات، تؤهله لهذا الدور العظيم.

وحتى نصل لهــذه المعارف، ربما نحن بحاجة لوصية ديكارت: «يجــب أن نتأمل أكثر مما نتعلم». ذلك لأننا حالما نعتقد أننا عرفنا جميع الأجوبة تقوم الحياة بتغيير الأسئلة.

شكرًا يا «حكيم»..



الفصل الأول

السكر

يحقق رؤيا هارون الرشيد

أ: قصة هارون الرشيد[١]

الرقة.. حيث يتهادى نهر الفرات، ويترقرق ماؤه، وكأنه لا يريد أن يبرح المدينة الحالمة، التي تغفو على ضفته اليمنى، وقد جمع لها بين برد نسيم الجزيـرة وعذوبة ماء الفرات. ولماذا عليه أن يرتحل عنها وقد حلت بها الدنيا؟ ألم يهجر الرشيد دار السلام، ويتخذها عاصمـة لملكه وقاعدة لجنده، منذ ما يربـو على خمس سنين، حتى غـدت منارة لـلأدب وموئلًا للشعـراء، فضلًا عن أربـاب الصنائع وطـلاب المعائشـ؟ لقد أقبل هـؤلاء من كل حدب وصـوب رجاء أن يبتسم لهم القدر، فيظفروا بلقاء أمير المؤمنين ولو للحظة عابرة.

وبخلافهـم جميعًا ثمت رجـل واحد يتمنى لو يـؤذن له بفراق قصـر الخليفة ليوم واحـد فقط، عله أن يمتـع ناظريه بالتجول في أنحـاء المدينـة. ومع أنـه قد بلغ مـن الكرامة حدًّا جعـل الرشيد لا يـرد له شفاعة، ولا يخالف له أمـرًا، إلا أن أقصى أمنياته أن يغادر بيتـه الفخم الذي ألحق بقصر الخليفة. ولكن كيف؟ وهو أول داخل على أمير المؤمنـين، وآخر خارج من عنده؟ وبين هذا وذاك مشغول

---

(١) للاستـزادة انظـر: هـارون الرشيـد أمـير الخلفـاء وأجـل ملـوك الدنيـا، شوقـي أبو خليـل، والبدايـة والنهايـة (١٤/ ٢٤-٢٩)، وتاريـخ الخلفـاء، للسيوطـي (ص ٤٥٤-٤٦٨).

بمكتبته العامرة التي تملؤها كتب جالينوس وأبقراط، وتزينها كتب أبيه وأجداده آل بختيشوع الأطباء العظام.

بات الطبيب جبريل[1] ليله يتفكر في شأنه وشأن الناس، فما يراه الناس حظوة وجاهًا، يراه هو قيدًا ثقيلًا على جسده وروحه، وما يطمح الناس إليه هو غاية ما يريد الخلاص منه. ولكن لا صلاح للدنيا بدون هذه الرغبات المتضادة، ولولاها لأصبح الكثير نادرًا والنادر معدومًا.

استغرق جبريل في تأملاته التي لم تدع للكرى سبيلًا إلى جفنيه حتى بزغ الفجر أو كاد. نهض من مخدعه ثقيلًا متماوتًا، وطفق يستعد ليوم رتيب آخر من أيام قصر الخلافة.

وبينما هو كذلك إذا بمسرور الخادم يطرق الباب طرقًا عنيفًا، كاد أن يخلع قلبه قبل أن يقتلع باب داره. نظر إلى شعره الأصهب المسترسل ووجهه الحاد ذي السحنة البيضاء، الذي يبعث على الرعب والقلق، فلماذا يدعى مسرورًا إذن؟ عجبًا لهذه الأسماء، نسميها لتهبنا شيئًا من صفاتها، وإذا نحن من يضفي عليها معانيها. لم يمهله مسرور حتى يسترسل في تأمله، بل نهره بلهجة حازمة: أجب أمير المؤمنين.

---

(١) جبريل بن بختيشوع طبيب سرياني من أسرة اشتهرت بالطب والحكمة كان مقدما عند هارون الرشيد وعند ولده المأمون، توفي سنة ٢١٣هـ.

انطلـق مسرعًـا لا يلوي على شــيء، فهذه أول مــرة يستدعيه الخليفــة بهذه الطريقة، ولا بـد أن ثمت خطبًا قد ألم، أو أن عارضًا قد أصاب أمير المؤمنين. دخل الإيوان وإذا بالرشيد قد أخلى نفسه من الناس، وهو واجـم مطرق لا يتكلم، يكاد يموت غمًّا وهمًّا. سلم عليــه فلم يكد يرفــع طرفه إليه. دارت الدنيــا برأس جبريل وخطر لــه ألف خاطر حتى ظن بنفســه الظنون، فما أكثر الوشاة، وكل ذي نعمة محسود.

لبــث على هذه الحــال مليًّا، وهــو واقف بين يــدي الرشيد، ثم تشجــع وقال: ياسيدي، جعلني الله فداك، ما حالك هكذا؟ أبك علة فأخــبرني عنهــا، فلعله يكون لــدي دواؤها، أو مصيبــة في بعض من تحب، فذلك ما لا يدفع، ولا حيلة فيه إلا بالتسليم، والغم لا طائل من ورائه، أو لعله قد ورد عليك خلل في ملكك، فلم تخل الملوك من ذلك، وأنــا أولى من أفضيت له بالخبر، وتروحت إليه بالمشورة. التفت إليه الرشيــد، ثم قال: ويحــك يا جبريل! ليس بي شيء مما ذكرت، وإنما رؤيا رأيتها في ليلتي هذه، قد ملأت صدري رعبًا وفزعًا.

دنــا منــه جبريــل فقبــل قدمه، وقــال: فرجــت عني يــا أمير المؤمنــين، إنمــا الرؤيا تكون من خاطر أو غــيره، وإنما هي أضغاث أحــلام، فقصهــا عليَّ جعلنــي الله فداك. قال الرشيــد: رأيت أني جالس على سريري هذا، إذ خرجت من تحته يد أعرفها، وفي كفها

تربــة حمراء، فقال لي قائل، أسمــع صوته ولا أراه: هذه التربة التي تدفن فيها! يكررها ثلاث مــرات. ثم غابت الكف وانقطع الصوت، وانتبهت من النوم. وأنا فزع مرعوب.

فقال جبريل: ياسيدي، هذه والله رؤيا بعيدة ملتبسة، وأحسبك قــد أخــذت مضجعك، ففكــرت في إحــدى النواحي التــي انتقضت عليــك، فخالــط منامك شيء من الهــم، وتولدت هــذه الرؤيا، فلا تحفــل بها وأتبع هذا الغم سرورًا يخرجه من قلبك. فما برح يطيب نفسه بضروب الحيل، حتى سلا وانبسط ونسي الرؤيا.

رجع جبريل بن بختيشوع إلى بيته، وهو يفكر برؤيا الرشيد، لقد كان يدرك منذ أن طرقت سمعه لأول وهلة: أنها رؤيا حق، وإنما أراد أن يسلــي أمير المؤمنين ويطيب خاطره. يــد معروفة وصوت مجهول يشير إلى تربة حمراء ليست من جنس التربة المعهودة في الرقة ذات التربة البيضاء! ما هذه بحديث نفس، وليست بأضغاث أحلام!

عجبًــا لأمر هذه الــرؤى! كيف تسبر أغــوار المستقبل، وتغوص في أعمــاق الماضــي، وكأنما هي نوافــذ تفتحها الــروح، لتبصر من خلالهــا ما لا تدركــه حواس الجسد. أن الــرؤى في حقيقتها ما هي إلا حاسة مــن حواس الروح، تستشرف من خلالها المستقبل، وتعيد قــراءة الماضي لتودعها في ذاكرة الحاضر على هيئة دلالات ورموز.

وبالمقابل فإن تحقق الرؤيا دلالة حسية لعالم المادة على عالم الروح، تحدث لعامة البشر في كل زمان ومكان.

استغرق جبريل في خياله، وهو يحاول فهم آلية الرؤيا الغامضة، النوم يضعف سلطان الجسد على الروح، فينطلق ذلك الكائن اللطيف في عالمه المفارق للمادة، وقد تعلق طرفه السفلي بالجسد، أما طرفه الأعلى فيرقى إلى عالم الأرواح، ويكون صعوده بحسب قوة الروح وجودة حواسها، وكما تخطئ حواس الجسد قد تخطئ حواس الروح، ومن هنا يأتي صدق الرؤيا أو كذبها. ثم يأتي من بعد ذلك مرحلة نقل الرؤيا من عالم الروح إلى عالم المادة، وهي مرحلة دقيقة تحتاج إلى وسيط يترجم رؤية الروح إلى لغة الجسد، ويختار الرموز المناسبة التي تساعد المعبر والرائي على فك شفراتها.

أحس جبريل بنشوة تسري في جسده، بعد أن توصل لهذه الآلية المقنعة إلى حد ما، نسي في غمرتها كآبته المزمنة، التي نتجت بسبب سجنه المخملي في قصر الخليفة وموكبه. تسلل النوم سريعًا إلى عينيه ليقطع عليه نشوة هذا الكشف الفكري، الذي هداه إليه عقله.

مرت الأيام رتيبة متطاولة على الطبيب الفيلسوف، نسي فيها الرؤيا وحديث الروح في غمرة انشغاله بتدبير أمر الخليفة.

كان أكثر ما يثير قلقه هو نمط حياة الخليفة البطين، الذي جاوز الأربعين بأشهرٍ قليلة، فهو مبالغ في كل شيء، إن صام لم يكد يفطر، وإذا أكل لم يكد يشبع، بل حتى رضاه وغضبه وهزله وجده ليس لأي منها حد.

لم يدع وسيلة من وسائل الإقناع إلا اتبعها، ولا ضربًا من ضروب الحيل إلا احتاله دون أن يجد ذلك نفعًا، حتى حدث ما كان يخشاه ويحذر منه.

غشي على الخليفة بعد الغداء حتى ظن الجند به الظنون، وأسرع الأمين والمأمون بنفسيهما لإحضار الطبيب. قدم جبريل على عجل، فجس نبضه وطمأن الجميع، ثم أمر بفصده في الحال. لم يلبث الخليفة بعدها طويلًا حتى أفاق من غيبوبته، واستعاد نشاطه وحيويته.

ارتفع قدر جبريل بعدها في عين الرشيد، وخطى به الحظ خطوة واسعة، عندما أتيحت له فرصة الالتقاء بالأميرين الشابين.

رجع هارون الرشيد إلى بغداد مرة أخرى، وترك الرقة لتعود هادئة وادعة، فلا صخب مواكب ولا جلبة جيوش، بل حتى التاريخ توقف عن الكتابة عنها! تتابعت الأحداث في بغداد من غزو نقفور وإجباره على دفع الجزية صاغرًا، ثم خروج الوليد بن طريف

الشــاري وقتله[١] إلى نكبة البرامكة. كل هذا والرشيد يعد لكل شئ عدته، ويلبس لكل حالة لبوسها.

خــرج رافــع بن ليــث[٢] في سمرقنــد، واستفحل أمــره بعد أن كسر قواد الرشيــد واحدًا تلو الآخر، فقرر الخليفة الخروج بنفسه. اعترض الطبيب جبريل على خروجه بشدة، فالشقة بعيدة، وصحة الخليفــة ليست على مــا يرام، لا سيما وقد شــارف على الخمسين، وهو بين إفراط في الصوم أو إسراف في الأكل.

ضاق الرشيد ذرعًا باعتراض طبيبه، الذي لا يقدر الموقف حق قــدره، فرافع هو حفيد نصر بن سيار القائد الأموي العظيم، الذي أخــر قيام دولة بني العباس في خراسان عشر سنين، ثم هو في بلاد مــا وراء النهر، وهــي معقل حصين لكل متمرد علــى سلطة المركز، وقد استغلها بنو العباس من قبل إبان ثورتهم على بني أمية.

خــرج الرشيد مغاضبًا لطبيبه وأمر بجعله في أخريات الجيش واستدعى طبيبًا فارسيًّا ليكون بحضرته. فلما كان بالنهروان ابتدأ

(١) أمير عربي خرج على هارون الرشيد بنواحي الموصل، واستفحل أمره فبعث إليه يزيد بن مزيد الشيباني فقتله. رثته أخته الفارعة بقصيدة رائعة:

فيا شــجر الخابــور مالك مورقــا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يريــد الزاد إلا مــن التقــى ... ولا المال إلا من قنى وســـيوف

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى ... فإن مات لا يرضــى الندى بحليــف

(٢) رافــع بــن ليــث الكناني من بيــت إمــارة ورئاسة، خرج علــى الرشيد، وهــزم نوابه على خراسان، ثم قتله المأمون سنة ١٩٥هـ.

به وجع بطنه، فكان يخفيه حتى عن خاصته، ويعصب عليه عصابة تخفف عنه الألم، ولسان حاله يقول:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع[1]

فلما وصل طوس[2] اشتدت به العلة، وضعف عن المسير، فأقام فيها يمرض في بستان هناك. وعبثًا حاول الطبيب الفارسي علاجه، فلم يقدر على ذلك، فاستدعى الرشيد مسرورًا الخادم، وأعطاه ماءه في قارورة، وقال له: اذهب به إلى جبريل، وقل له هذا: بول رجل اطلبه مالاً وهو مريض، فإن كان به رجاء تركت مالي عنده، وإلا استعدت ديني.

نظر الطبيب جبريل في بول الرشيد وفحصه بتمعنٍ، ثم قال: يا مسرور إن كنت تريد مالك فخذه الآن، فهذا بول رجل لا يعيش ثلاثة أيام.

رجع مسرور إلى الرشيد فأخبره بالخبر، فاسترجع وبكى، ثم استدعى جبريل وألح عليه في إيجاد علاج نافع له، فلم يقدر، وقال له: كنت نهيتك عن هذا الخروج، وطلبت منك العودة لبلدك بسبب المناخ الذي لا يوافقك.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، انظر: المفضليات (ص٤٢٢).

(٢) مدينة أثرية، كانت من أعمر مدن خراسان وأجملها، حتى هدمها المغول قرابة سنة ٦٢٠ للهجرة، وتقع حاليًا في إحدى ضواحي مدينة مشهد شمال غربي إيران.



ثــم دعا مسرورًا الخادم، وقال لــه: ائتني بشيء من تربة هذه الأرض. فجاء حاسرًا عن ذراعــه، وفي كفه تربة حمراء، فلما رآها ذكـر رؤيـاه بالرقة، فهاله ذلـك، وقال: ويحـك ياجبريل هذه والله الكف التي رأيت، والتربة الحمراء التي رأيت.

أشــاح الرشيــد بوجهــه، وأمــر بحفر قــبره في الــدار التي هو فيها، ثــم أمرهم أن يقرأوا القراءن في قــبره، فقرأوه حتى ختموه، فجعل ينظر إلى قبره، ويقــول: اللهم انفعنا بالإحسان، وتجاوز عنا الإســاءة، يــا من لا يــزول ملكه ارحم مــن قد زال ملكــه. ثم مات بعدها بثلاث ليال.



ب: تحقيق سبب الوفاة

مما سبق يتضح أن سبب وفاة هارون الرشيد هو الحماض السكري الكيتوني (Diabetic Ketoacidosis) وهي إحدى المضاعفات الخطرة لمرض السكر، وتحدث عند نقص الإنسولين في الجسم، وعدم قدرة العضلات على الاستفادة من سكر الجلوكوز في الدم، فتضطر إلى حرق الدهون المخزنة لاستخدامها، بوصفها مصدرًا بديلًا للطاقة. لكن هذه العملية تؤدي إلى تراكم أحماض سامة في الدم، تدعى الكيتونات، تزيد من حموضة الدم، وتؤدي إلى الوفاة سريعًا في حال عدم العلاج.

وغالبًا ما تبدأ أعراض الحماض السكري الكيتوني على هيئة ألم حاد في البطن وعطش شديد يرافقه تبول كثير مع وهن عام في الجسم. وتكون رائحة البول مميزة وحادة بسبب وجود أحماض الكيتونات، ومن هنا عرف الطبيب جبريل ابن بختيشوع أن مرض الرشيد لا يمكن شفاؤه، عندما شم رائحة الكيتونات.

وثمت تطابق واضح بين أعراض مرض الحماض السكري الكيتوني والأعراض الصحية التي ذكرت في الروايات التاريخية،

كرواية السيوطي في تاريخ الخلفاء[١]، عن سبب موت هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وبالإضافة إلى ذلك، فسيرة الرشيد وما روي عن نمط حياته، يدل دلالة واضحة على أنه كان مصابًا بالسكر، وذلك وفقًا للشواهد التالية:

أولًا: ما رواه ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) بسنده إلى جبريل بن بختيشوع، قال: «كنت مع الرشيد بالرقة، ومعه المأمون ومحمد الأمين ولداه، وكان رجلًا بادنًا كثير الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، فغشي عليه»[٢]، ثم أمر بفصده وحجامته، فأفاق من ساعته. ويغلب على الظن أن هذه الغيبوبة ناتجة من ارتفاع السكر في الدم، بدليل حدوثها بعد الأكل الكثير، واستجابتها للفصد والحجامة. والفصد هو إخراج الدم من الشريان، ومفعوله أسرع من الحجامة لكثرة ما ينزف من الدم.

ثانيًا: في خبر آخر ساقه ابن أبي أصيبعة عن جبريل: أنه أنكر قلة أكل الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة، وفي آخره قال الرشيد: «إنما آكل الشيء بعد الشيء لئلًا يثقل الطعام عليَّ فيمرضني»[٣]، وفي هذا دلالة واضحة على إصابته بمرض السكر، ولولا ذلك لم

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (ص ٤٦٣).

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة (ص ١٤٨).

(٣) نفس المصدر السابق (ص ١٥٠).

يمرضــه الطعام وهــو في الأربعين من عمره. ولعل هــذا من أسباب كثرة صيامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثالثًا: ما يروى عن نمط حياة الرشيد حال غضبه وحال سروره، ومــا ذكره طبيبه عن إسرافه في مأكله ومشربه بالإضافة إلى بدانته المفرطة، وكل هذا يجعل احتمال إصابته بالسكر عاليًا جدًّا.

ومما قد يستدل به على ذلك أنه توقف عن رحلات الحج والغزو منذ سنة ١٨٨ للهجرة، أي قبل ٥ سنوات من رحلته الأخيرة، ولعل هذا يعــود لما يعانيه من مرض السكر في أثناء سفره، ولهذا اعترض طبيبه على رحلته الأخيرة، مع أهميتها القصوى في تثبيت دعائم ملكه.

رابعًا: لا شك أن أقوى الأدلة علــى الإطلاق هو فحص البول، الــذي قام بــه الطبيب جبريــل، واستدل به على قــرب موت هارون الرشيــد. وهــذا الإجــراء كان معروفًا عنــد الأطبــاء قديمًا، حيث يستــدل الطبيب علــى صحة المريض عن طريــق معرفة خصائص البول. ولا يزال من الفحوصات المهمة إلى اليوم في تشخيص العديد من الأمراض، ومن بينها مرض السكر[١].

وهنا ينبغي أن أشير إلى رأي فيه شيء من الغرابة، ذكره شوقي أبو خليل في كتابه (هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا)،

---

(١) مــن باب الأمانة العلمية، فقــد استفدت هذه المعلومة أول مرة من أستاذي الدكتور خالد الربيعان في أثناء محاضرة له في كلية الطب.

عندما تساءل عن سبب موت هارون الرشيد، ورجح أن يكون مؤامرة، انتهت بأن دس جبريل له السم بتحريض من جعفر البرمكي!

وبنى هذا الرأي على حسن علاقة جبريل بن بختيشوع مع البرامكة، وعلى ما ذكره الطبيب الفارسي أن سبب مرض الرشيد هو غلطة جبريل بن بختيشوع. وبناءً على هذا الرأي أنكر جميع الروايات الأخرى، التي أشارت إلى مرض الرشيد وهو في الطريق.

وهذا الرأي ضعيف جدًّا، لأن أعراض السم معروفة عند عامة الناس قديمًا وحديثًا، ولو حصل ذلك لما تُرك جبريل ولأخذه الأمين أو المأمون بجريرته، كيف وقد حظي عندهما جميعًا. ولم تشر أي رواية من الروايات التاريخية إلى السم، أما ما ذكره الطبيب الفارسي فهو أمر مبهم، لا يعدو أن يكون من كلام الأقران في بعضهم البعض. وأما الاستناد إلى حسن علاقته مع البرامكة فهذا عجيب جدًّا، إذ علاقة البرامكة مع علية القوم وعامتهم، بل حتى مع الرشيد نفسه، كانت حسنة جدًّا قبل أن يتغير عليهم وينكل بهم.

وختامًا: فإن توافر الروايات التاريخية يشكل وصفًا دقيقًا للتاريخ المرضي، بينما فحص البول يشكل فحصًا أساسيًّا للمرض، مما يؤكد أن سبب وفاة الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الحماض السكري الكيتوني كأحد مضاعفات مرض السكر.

ج: إضاءات طبية[1]

الحماض الكيتوني السكري (Diabetic Ketoacidosis) هو أحد المضاعفات الخطيرة لمرض السكر، تحدث بسبب النقص الحاد في الإنسولين في الجسم. وهو أحد المضاعفات المرتبطة بالنمط الأول من مرض السكر، وقد تحدث في النمط الثاني في حالات معينة كالعدوى الرئوية أو عدوى المسالك أو عند الإرهاق البدني الشديد.

وتبدأ الأعراض عادة بالشعور بالغثيان والتقيؤ، وقد يصاحبها ألم بطني حاد عند بعض المرضى. ومع تطور الحالة الصحية يزداد النفس عمقًا، ويكون مجهدًا، وتتغير رائحته إلى ما يشبه رائحة الفواكه بسبب زيادة تركيز الأسيتون في الدم. ينخفض بعدها مستوى الوعي مما يؤدي إلى الغيبوبة والوفاة في حالة عدم العلاج.

مما يجدر ذكره أن هذا المرض كان مرضًا قاتلًا قبل اكتشاف الإنسولين الصناعي، واستخدامه في علاج مرضى السكر سنة ١٩٢١ للميلاد. أما اليوم فنسبة الوفاة منه أقل من ١٪ نظرًا لسهولة التشخيص ووجود العلاج الفعال في أغلب المراكز الطبية.

(1) Kumar & Clark: Clinical Medicine (page: 10881092-)

تشخيص المرض: بالإضافة إلى الأعراض السريرية المذكورة آنفا، يتم تشخيص مرض الحماض السكري الكيتوني (DKA) عن طريق تحليل السكر في الدم، والذي قد يصل إلى مستويات عالية جدًّا (>٦٠٠ مغ/ دسل). ويتم التأكد من التشخيص بعد اكتشاف الكيتونات في الدم والبول مع زيادة حمضية الدم.

علاج المرض: يُعدُّ الحماض السكري الكيتوني حالة طارئة تستدعي تدخلًا طبيًّا سريعًا عن طريق تعويض نقص السوائل والأملاح والعلاج الهرموني بالإنسولين. وقد تتطلب إعطاء البيكربونات لتخفيف حموضة الدم. ومن المهم بعد ذلك علاج المسببات لهذا المرض كالعدوى وغيرها.

نصائح طبية: يجب أولًا الحرص على أن يكون نمط الحياة صحيًّا باتباع نظام غذائي ورياضي سليم مع المحافظة على وزن مناسب، والبعد عن كل ما يثير القلق والغضب، لأجل تجنب الإصابة بمرض السكر.

ولكي يتم ذلك لا بد لكل من جاوز الخامسة والثلاثين أن يمارس نشاطًا بدنيًّا معتدل الكثافة كالمشي السريع لمدة نصف ساعة -على الأقل- بمعدل أربع مرات أسبوعيًّا.

وبالإضافة إلى ذلك لا بد أن تقتصر إحدى الوجبات الرئيسية على الفاكهة والخضروات فقط، ولا يخلط معها أي مصدر

للكربوهيـدرات أو الدهـون سـوى زيـت الزيتون. وهـذه الوجبة مع فائدتهـا الغذائية العاليـة المتمثلة في بعض الفيتامينات والعناصر التـي لا تتوفر فيما عداهـا، إلا أن هدفها الأساسي هو القضاء على الإمساك وإراحة الأمعاء من تراكم سموم الفضلات فيها.

وفي حالـة الإصابـة بمرض السكـر يجب الحرص على اتباع إرشادات الطبيب خصوصًا ما يتعلق بالنظام الغذائي ونمط الحياة الصحي وعدم إهمال العلاج. كما ينبغي العلم أن التعامل الصحي مـع السكر يقي بـإذن الله من جميع مضاعفاتـه الشائعة، أما عند الإهمال وعـدم المبالاة، فإن السكر يكـون مقدمة لأمراض عديدة، تصيب كافة أعضاء الجسم، ولذا يسمى «أبو الأمراض»[١].

ومـن الضـروري كذلك معرفـة أعراض جميـع المضاعفات الخطـيرة لمرض السكـر، خصوصًـا أعراض الحماض الكيتوني السكـري، لأن نسبـة التماثل للشفـاء تعتمد على سرعـة تشخيص المرض وعلاجه.

مما يجـدر ذكره أن سكر الأطفـال أو النمط الأول من مرض السكـر قد يأتـي على هيئة حماض كيتوني سكـري بسبب النقص الحـاد والمفاجئ في نسبة الإنسولـين في الدم، ولذا ينبغي الاحتياط وعدم إهمال الأعراض الأولية للمرض.

(١) رفعت هنا على الحكاية، والجملة في محل نصب.

د: تعبير الرؤى(١)

الرؤيا الصالحة إحدى عجائب الدنيا، لأنها قد تكشف غيبًا لم يخطر ببال أحد، وقد تبرز شيئًا لم تتهيأ أسبابه بعد. وهي أمر تعجز المادة عن تفسيره، ولا تستطيع إنكاره، فهو من أقوى الدلائل على عالم الروح الذي أنكره الماديون بحجة أنه غير قابل للتجربة العلمية، التي تختبر فيها صحة الفرضيات، وتخضع فيها المتغيرات لشروط مسبقة يتحكم فيها الباحث. وفي هذه الحجة تعسف واضح وقصور شديد، لأنها تفرض قوانين المادة على شيء يفارقها، ويخالف نواميسها، وهو ما أشار الله عَزَّوَجَلَّ إليه ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

وقد تعلق الناس بالرؤى على مختلف طبقاتهم حتى غدا تعبير الرؤى سوقًا رائجًا ووسيلة سريعة للشهرة والثراء، فقصده من لا يحسنه، وصمد صمده من لا يفهمه، فالتبس على الناس الأمر، وعز عليهم التفريق بين العالم والمتعالم. والحق أن التفريق بينهما عسير جدًّا، لأن تحقق الرؤيا لا يعتمد على جودة التعبير فقط، بل يقوم على صدق الرؤيا وصدق الرائي ومدى دقة نقل الرؤيا للمعبر.

---

(١) للاستزادة انظر: الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمحدثين والمخالفين، تأليف: د. سهل العتيبي. والكتاب عبارة عن رسالة ماجستير رصينة.

وثمـت قاعدتان ذهبيتان لمـن أراد التفريق بـين المعبر الجيد ومن سواه:

أولًا: تعبير الرؤى علم دلالة وليس وحيًا أو إلهامًا، بل لا بد من وجـود قرينة تربط بين الرمز المضروب في الرؤيا وبين تأويل المعبر، وللرائـي أن يسأل المعبر عن القرينة التـي استدل بها في تعبيره كي يتضح له وجه التأويل، ويتحقق من جودة تعبير رؤياه.

تأمـل معي بعضًا من الرؤى المذكورة في القرآن تجد الأمر بينًا واضحًا، فالشمس في رؤيـا يوسف كانت أباه يعقوب عليهما السلام لأنـه نبـي يشع ضـوء هدايته علـى الأرض، أما القمـر فكانت أمه -زوجـة يعقوب- فهي أول من استفاد من ضوء هداية النبي وبلغها، تمامًـا كما يفعل القمر مـع ضوء الشمس. وهـذا الأمر ينطبق على إخوته الأحد عشر، فهـم كواكب وليسوا نجومًا، إذ لم يكونوا أنبياء حال حدوث الرؤيا ولا حال تحققها.

وتأمل معي في رؤيا الملك في سورة يوسف، يستبين لك القصد، فالبقـرة السمينـة سنة خصبة، والبقرة العجفـاء سنة مجدبة، ثم تأمل كيف تأكل البقرةُ العجفاء البقرةَ السمينة، كما يضطر الناس في السنة المجدبة إلى أكل محصول السنة الخصبة وهكذا.

وهـذا أمر مطـرد في جميع الرؤى المذكـورة في القرآن والسنة وعـبر التاريخ. وسيأتي الحديـث عن رؤيا عاتكة بنـت عبد المطلب

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يوم بدر، وما فيها من دلالة عجيبة. وفقه القرينة أمر تتفاوت فيه أفهام المعبرين بحسب تضلعهم من علوم القرآن والسنة وعلوم اللغة، وبحسب ذكائهم وقدرتهم على الربط والتحليل. ورحم اللّه أبا الطيب حين لخص هذا ببيت واحد:

ولكن تأخذ الأفهام منه   على قدر القريحة والعلوم

ثانيًا: لا يمكن تأويل جميع الرؤى، إذ قد تكون القرينة بعيدة تستعصي على فهم المعبر، ولا تعرف حتى تتحقق الرؤيا، وقد يخفى على المعبر شيئًا من أحوال الرائي تشير إليه الرؤيا من طرف خفي، فيعجز عن فهم القرينة. وهنا يبين الفرق بين عالم يعرف حدود علمه، ومتعالم يخوض غمار بحر لا يحسن الوقوف على ساحله، فيتصدى لكل رؤيا يفسرها، وربما فسر أضغاث الأحلام وحديث النفس أيضًا!

وخلاصة الأمر في هذا المقام: أن من تصدى لتفسير جميع الرؤى، ولم يبين وجه القرينة عند السؤال عنها، كمن يفتي في جميع مسائل الفقه، ويعجز عن الإتيان بالدليل، واللّه أعلم.



الفصل الثاني

زائرة المتنبي

أ: قصة المتنبي[1]

محلة كنـدة بظاهر الكوفة. حيث يقـف الصبي الهزيل أحمد منزويًـا عن بقيـة الصبية، الذين يلعبـون في عرض الطريق. يخيل إليـك أن السبـب وراء انفراده هـو خجله من شملتـه البالية أو من قدمه الحافية، وليس الأمر كذلك، فهذا شأن أغلب من يسكن هذة المحلـة البائسـة، وإنما السبب هـو سخرية الصبيـة المتواصلة من والـده «السقاء عيدان». مـا أن يجتمع شملهم حتـى تبدأ المسرحية الساخـرة. يعرضـ أشقاهم على متنه عودًا طويـلًا يعلق في طرفيه إنـاءً عتيقًـا، ثم يـدور على الصبيـة: ماء..ماء (يمد بهـا صوته)، تتعالـى ضحكاتهم، ويستخفهـم المرح، وربما استطالـوا على ذلك الصبي الجاد، الذي لا يشاركهم لهو الطفولة.

أنـه مختلف عنهم وكفى. وهذا وحـده كاف، لأن تناله الألسن وربمـا الأيـدي. لا يعني الأطفـال بعد ذلك أكان ابـن سقاء أم ابن حجام، ولكنها سجية الأطفـال التي سرعان ما يتذكرها الكبار إذا رأوا مـن يتميز عنهـم ويتفوق عليهم. إن ذنـب النـاجح عظيم، فهو يذكـر الفاشل بفشلـه والمقصر بتقصـيره، فلا يجب أن يتـأوه إذا اعتورته النصال، وناشته أطراف القنى.

---

(١) للاستزادة، انظر: شرح ديوان أبي الطيب، للبرقوقي، وإمبراطور الشعراء، للقرني.

إنــك مهما نبا نظرك عــن أحمد، وازورّت عنــه عيناك لرثاثته وشعثــه، فلا بد أن تلمــح في عينيه نظرة غامضة، بعيدة الهدف حتى ليخيل إليك أن بصره قد جاوز محلته المتواضعة، وتعلق بأستار الأفق.

إن قسمات وجهه الحــادة، حتى وإن سفعها الفقر، لتلوح منها مخايل النجابة وأمارات النبوغ.

أقبــل عيــدان السقاء تسبقــه جلجلة أواني المــاء، والبشر يعلو محيــاه، فقد زادت غلتــه اليوم عن ثلاثة دراهــم. أنزل الأواني من علــى ظهــره، وأخرج الدراهــم يتفحصهــا، وأحمد مطــرق واجم، ولســان حاله يقول: يــا أبت لطالما آلمني فقــرك وازدراء الناس لك، ولكن أكثر ما يغيظني هــو رضاك بشظف عيشك، وقناعتك بالنزر القليل الذي تحصل عليه من كد ظهرك وسعي قدمك.

لم يجــرؤ أحمد على قــول هذا الكلام لإبيه، ولــو مرة واحدة، ليقينه ألا طائل من ورائه، فبينهما ما بين همة الفتى الطموح وهمة الشيخ العليل من بون وتفاوت، وسبحان الذي يخرج الحي من الميت.

اشتدت نقمــة أحمد، وزادت سخريته المكتومة من وضع عائلته القــاتم، ولم يكن يسليه في تلك الأثناء سوى حديث جدته المتكرر عن طيب نسبها وكرم محتدها. ومع أن كلامها في نظر أهل البيت لا يعدو كونــه ثرثرة ضرب الزمن عليها بجرانــه، إلا أن الصبي كان يصغي إليها بكل جوارحه، وربما استعادها القصة تلو القصة، فتقول: اعلم

يابنــي أني مــن قبيلة همدان، تلك القبيلة العريقــة، التي خرج منها كثير من أقيال[1] اليمن، وفيها قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ولما رأيت الخيل تضرب بالقنا فوارسها حمر العيون دوامي

تيممت همـدان الذي همُ همُ إذا نـاب أمر جنتي و حسامي

ولو كنت بوابًـا على باب جنةٍ لقلت لهمدان ادخلوا بسلامي

ومــا ذاك إلا لعظم بلائهم في الحرب، وكـرم أحسابهم وعلو همتهم.

أمــا أنت يا بني فإنك من سعد العشيرة. أتدري لم سمي بهذا الاســم؟ لقد طال عمر سعد وكثر أبنــاؤه وأحفاده، حتى بلغوا ثلاث مئــة رجل، فكان إذا ركب فيهم سئـل عنهم، فيقول: «هم عشيرتي» مخافــة الحسد. يابني: لقد سأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمرو بن معدي كرب الزبيــدي[2] عــن سعد العشــيرة فقــال: أعظمنا خميسًــا، وأكبرنا رئيسًا[3]. ويعني أنهم قد جمعوا بين الكثرة والرئاسة والشدة.

---

(١) أقيال: جمع قيل وهو الملك.

(٢) عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارس العرب، وصاحب الصمصامة، وهي أشهر سيوف العــرب. شــارك في فتوح العراق وأبلى بلاء عظيمًــا في القادسية ونهاوند، ومات في سنة ٢١ للهجرة. وعمرو شاعر مجيد، وهو صاحب البيت الشهير:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

(٣) الخميســ: الجيش العظيــم، وسمي خميسًا، لأنه يقسم عادة إلــى خمس فرق: المقدمة، والميمنة، والميسرة، والقلب، والساقة، وهي مؤخرة الجيش.

استطردت الجدة قائلة: فما زال الزمن يدور حتى قلب لنا ظهر المِجنّ، فلم تعد تعني أحسابنا للترك والفرس شيئًا، بل أصبحت إرثًا ثقيلًا، ترزح به كواهلنا حين رقت حالنا. يا بني لقد تطاولوا على الخليفة، فسملوا عينه، وألقوه للسابلة، يستسقيهم الماء فلا يسقيه أحد، أفتراهم يعبأون بنا بعد ذلك؟

في هذا الجو المفعم بالمتناقضات نشأ المتنبي وترعرع، نابغة عبقري، قد عُلقت نفسه بما فوق النجوم، يدرج في بيت قد أنشب الفقر أنيابه ومخالبه الغائرة في أهله، حتى كسر أنفسهم، وأراق ماء محياهم، حسب زاكٍ قديم قد حال دونه نسب وضيع وحال رقيق، هوى بهم إلى أسفل طبقات المجتمع، حتى أصبحوا مثارًا للسخرية والتندر.

إن أي نابغة ينشأ في ظرف كهذا، ستدور حياته حتمًا بين ثلاث عقد: عقدة الفقر، وعقدة الاحتقار، ثم عقدة التسلط.

وما أن يشب عن الطوق، ويملك زمام نفسه، حتى يسعى في طلب المال من كل وجه، فإذا ملك شيئًا من مال استيقظت عقدة الاحتقار في نفسه، فقام يطلب التقدير، ويبحث عن الشهرة والإثارة، فإذا حصل على شئ من ذلك سمت نفسه للولاية، وحركه حب السلطة.

ولا يميـز معدنه وتعرف شمائله حتى يتولى شيئًا من الولايات، فـإن كان كريم النفس، طيب الروح، قـال مثل قول أم حاتم الطائي عندمـا حبسهـا إخوتهـا، لكـي تضـن بشيء مـن مالهـا، وتدخره لنوائب الدهر:

لعمري لقد ما عضني الجوع عضة

فآليت ألا أمنع الدهر جائعا[1]

وإن كان حقودًا لئيمًا فعل مثل فعل الحجاج في أهل العراق[2].

ولو تأملت سيرة أبي الطيب المتنبي لوجدت أثر هذه «المتلازمة» بينًا واضحًا في حياته. فهو يكون أشد زئيرًا عندما تجتمع عليه عقده الثـلاث في آن معًا، ويخف صراخه كلما حلت عقدة من هذه العقد، حتى يتحول إلى ما يشبه الأنين الخافت عند حل العقدتين الأوليين.

بـل إن كثـيرًا من تجليـات الحكمة عند أبي الطيـب ما هي إلا رجع صدىً لهذه المتلازمة:

وأتعـب خلق اللـه مـن زاد همـ

ـه وقصر عما تشتهي النفس وجده

(١) الشعر والشعراء (٢٤٢/١).

(٢) روى ابن كثير في البداية والنهاية (٥٣٥/١٢): أن عبد الملك بن مروان قال للحجاج: إنه مـا من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه، فصف لي عيبك. فقال: إني لجوج حقود حسود. فقال عبد الملك: ما في الشيطان شر من ذلك!

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلبا بين جنبي مالـ

ـه مدى ينتهي بي في مراد أحده

خرج أبو الطيب من مراتع الصبا إلى الشام، وقد اجتمعت عليه أعراض المتلازمة كلها، فجعل يزأر زئيرًا يصم آذان الزمن. ولكأني به جائع فقير، قد ألجأه البرد إلى خان مهجور، وهو يقول:

أي محل أرتقي ... أي عظيم أتقي

وكل ماخلق الله ... وما لم يخلق

محتقر في همتي ... كشعرة في مفرقي

فلما طلع عليه الصبح خرج ينفض عن جنبيه الغبار، ويقول:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

أنا في أمة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود

ثم مضى في طريقه، وهو يسأل نفسه أي الولايات أعظم قدرًا وأجل خطرًا؟ الملك؟ فما أكثر الملوك! أم الخلافة؟ فثم خليفتان! لا بد أنها النبوة إذن! فلتكن! فهي حتمًا ستلفت أنظار الملوك فضلًا عن العامة، وسينسى الناس في غمرة ذلك ما كان فيه من نسب وضيع وحال رقيق.

دارت به أيامه بين سجن وحل وترحال، حتى نزل الشام فوجد الفرصة سانحة لحل العقدة الأولى: جمع المال، فأقبل يمدح كل من ظـن أن عنده نـوالًا، حتى لو كان نـزرًا قليلًا. قـدم على محمد بن زريق[1]، فمدحه بقصيدة لم يدع فنًّا من فنون المبالغة إلا سلكه:

بشـر تصـور غايـة في آيـة تنفي الظنـون وتفسد التقييسا

يـا من نلوذ مـن الزمان بظله أبـدًا ونطـرد باسمـه إبليسـا

فوصلـه بعشرة دراهم، فقيل لـه: إن شعره حسن. فقال: واللّه مـا أدري أحسـن هو أم قبيـح! ولكن أزيده لأجل قولـك هذا عشرة دراهم أخرى!

قـد يتسائل المرء: كيـف رضي أبو الطيب المتنبـي بمدح أمثال هـؤلاء، وهو آيـة في الاعتداد بنفسـه واحتقار غـيره؟ وفي الحقيقة إن هـذا دأب مـن يعاني من هذه المتلازمـة، ولنسمها إذن متلازمة المتنبـي (Almutanbi Syndrome)، مـا أن ينهمك أحدهم في حل عقـدة مـن عقده الثلاث، حتـى يغفل عن كل ما عداهـا، وربما أتى نقيضـ ما قاله، وهو لا يشعر. حتـى إذا انسدت عليه وجوه المطالع، وأفلس من الحلول كلها عاد زئيره أشد ما كان.

---

(١) محمد بن رزيق الطرسوسي ولي إمارة طرسوس، وهي مدينة سورية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

رحل إلى حلب، ولله در حلب، ما صنعت الشهباء بأبي الطيب! لقد شفته من دائه العضال. حباه أميرها سيف الدولة ما أنساه فقره، وأعلى مكانته حتى فاءت إليه نفسه، وثاب إليه احترامه وتقديره، وبقيت واحدة أغناه عنها شخص سيف الدولة، فهو أمير عربي من بني جلدته، انتزع الولاية ليصد الروم عن بيضة العروبة والإسلام، وأعاد مآثر أجداده التي كانت تحدثه عنها جدته.

هدأت ثائرة المتنبي في بلاط سيف الدولة، واستبدل السنان بالبيان، ورضي بولاية الشعر سمعًا وطاعة لأمر أمير العرب:

شاعر اللفظ خدنه شاعر المجـ

ـد كلانا رب المعاني الدقاق

أقام عنده ثماني حجج يصفيه من غرر القصائد، ومن عيون الشعر، وينتصف به من زمانه:

في جحفل من حديد لو رميت به

صرف الزمان لما دارت دوائره

ولا غرو أن يكثر حساده وشانئوه، وهو المنفرد بحب سيف الدولة وإيثاره، ولم يكن يعبأ بهم أول الأمر، حتى استطالوا عليه، وسعوا في إذلاله، وتكلموا عن سرقته للشعر. فاستيقظت عقدة الاحتقار في

نفسه، فعاد يزأر زئيرًا يمخر عباب الزمن، ويعتد بنفسه اعتدادًا لم يشهد له الشعر نظيرًا:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء عيوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ليس من دأب أمثال أبي الطيب أن يتحملوا إهانة تمس عقدة من العقد، مهما صغرت في أعين الناس، فقرر الرحيل، والتمس لنفسه عذرًا في غاية الروعة والجمال:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم

يمم المتنبي شطر مصر، لا يحدوه سوى حب الولاية، ولا يحركه إلا الرغبة في السلطة، بعد أن تمول وعرف الناس قدره.

وقـد يستغرب المرء لأول وهلة كيف يقصد المتنبي- على تعاليه وغروره- مصر، ليمدح كافورًا، وهو رقيق أسود، أعتقه الإخشيد[1]، فاستولـى على مصر بعد وفاة سيده، ودان له أهلها بالطاعة، وسار فيهـم سيرة حسنة. ولا وجه للدهشـة والاستغراب، فهذا ديدن من يعانـون من «متلازمة المتنبي»، ما أن ينهمك أحدهم في محاولة حل عقدة من العقد، حتى ينسى أو يتناسى ما عداها. وفي هذه المرة كان أبو الطيـب يفعلها بوعي كامل. ولذا لم تخـل قصيدة من قصائده في مدح كافور من لدغة من لدغاته. تأمل في مطلع أولى قصائده:

كفى بـك داء أن تـرى المـوت شافيا

وحسـب المنـايا أن يكـن أمـانيـا

أهذا مطلع من يريد المدح أم من يريد الندب والرثاء؟ ولكنها الشاعريـة المتناهية، التي تمدح ممدوحها في سبيل غايتها، وتندب صدقها ومبادئها في الوقت ذاته.

لم يكن كافور بأقل من المتنبي دهاءً ومكرًا، بل كان يعلم بما في جنانـه من نزعة للسيطرة وحب للولاية، فـكان يغدق عليه الأموال، ويماطله الولاية عملًا بقول أبي الطيب نفسه:

(١) هـو محمـد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية في مصـر والشام، كان في أول أمره واليًا للعباسيين على مصر، ثم استقل بها، وصد هجمات الفاطميين عنها، توفي سنة ٣٣٤ هـ، وكان ابنـه صغيرًا، فخلفه مولاه كافور، فساس مصر سياسة حسنة، وكان شهمًا حسن السيرة.

ولما كان ود الناس خِبا
جزيت على ابتسام بابتسام

ركب أبو الطيب الصعب والذلول، لتحقيق أربه ونيل مطلبه، فلم ينل سوى مزيدًا من مواعيد كافور، وشيئًا من دنانيره. فعمد الى التصريح بعد التلميح:

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

أجابه كافور أجابة من عرف داءه فحرمه دواءه: أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك للنبوة، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك؟ خرج أبو الطيب من مجلس كافور، وهو يتمتم بأبيات الحطيئة:

لما بدا لي منكم عيب أنفسكم
ولم يكن لجراحي منكم آسي

أزمعت يأسًا مبينًا من نوالكم
ولن ترى طاردًا للحر كالياس

أزمع الرحيل، وزمّ ركائبه، وأعد العدة. فبينا هو كذلك، إذ طرقت بابه زائرة غريبة لا تريد سواه. لم يكن في عفة جرير، فيقول

لهـا: ليس ذا وقت الزيارة، بـل فرش لها المطـارف والحشايا. ولم تكـن في استحياء صائدة القلوب فترجع بسلام، بل تخطت مطارفه وحشاياه إلى عظامه ومفاصله:

وَزَائِـرَتِـي كَـأَنّ بـهَـا حَـيَـاءً ... فَلَيسَ تَـزُورُ إلاّ فِي الظّلامِ

بَذَلْتُ لهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا ... فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظامي

يَضِيقُ الجِلْدُ عَنْ نَفَسي وَعَنها ... فَتُوسِعُهُ بِـأنْـوَاعِ السّقَامِ

إذا ما فارَقَتني غَسَّلَتني ... كَأنّا عاكِفانِ عَلى حَرامِ

كأنّ الصّبْحَ يَطرُدُها فتَجرِي ... مَدامِعُهَا بِأرْبَعَةٍ سِجَامِ

أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيرِ شَوْقٍ ... مُرَاقَبَةَ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ

وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصّدْقُ شَرٌّ ... إذا ألْقَاكَ فِي الكُرَبِ العِظامِ

أبِنْتَ الدّهْرِ عِندي كُلُّ بِنْتٍ ... فكَيفَ وَصَلْتِ أنتِ منَ الزّحامِ

جَرَحْتِ مُجَرَّحًا لم يَبقَ فيهِ ... مَكانٌ للسّيُوفِ وَلا السّهَامِ

لم يستطع أبو الطيب فراق مصر، وأقام فيها رغمًا عنه، فعيون كافور تحرسه نهارًا، وزائرته الحيية تعكف على وصاله كل ليلة.

فلمـا شفت نفسها منه وأبلّ[1] هو منها طفق يعد عدة الخروج في لطف ورفق، وهو يظهر الرغبة في المقام.

---

(١) أبلّ الرجل من العلة إذا شفي منها.

فلما تكاملت أهبته، وتجهز بجهازه، خرج من مصر يستره جنح الليل، وتخب به المطي، ويا له من خروج!

كان من سوء طالع كافور أن اعتلج في قلب المتنبي وقت خروجه من مصر ثلاثة لواعج: حزن في يوم عيد، وخوف من عدو حقير، وخيبة أمل مريرة، لينشد قصيدته الخالدة، التي رواها لسان الدهر، ورددها فم الزمان:

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدا دونها بيد

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئًا تتيمه عين ولا جيد

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
أني بما أنا شاك منه محسود

أني نزلت بكذابين ضيفهم
عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ما يقبض الموت نفسًا من نفوسهم

إلا وفي يده من نتنها عود

ثم مضى يرجم كافور بقوارع السخرية، ويرسل عليه صواعق الذم والاستهزاء. لم تكن هجاءً فحسب، بل كانت مثال الهجاء في كل زمان ومكان، وقد سار ذمه لكافور مسار الخافقين، ولا زال أمثالًا سائرة بين العالمين.



ب: تحقيق سبب الحمى

بلاغة المتنبي لم تدع مجالًا للشك: أن سبب الحمى التي أصابته هي الملاريا، فقد وصفها وصفًا يصلح أن يكون مادة لدراسة التاريخ المرضي للملاريا. فهي حمى لها وقت محدد في البدء والانتهاء، ولها نمط معين في مكان الألم وشدته، فهي تصيب العظام والمفاصل.

والحمى التي أصابت أبا الطيب كانت تعتاده ليلًا، وكان ينتظر موعدها من غير شوق فلا تخيب ظنه أبدًا، وهكذا الملاريا تأتي أعراضها في دورات منتظمة، لأنها مرتبطة بمراحل نمو طفيل البلازموديوم في جسم الإنسان.

والعجب لا ينقضي من بلاغة أبي الطيب في وصف التعرق الغزير (prefuse sweating)، الذي يصاحب انكسار سورة الحمى عندما قال:

كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي
مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ

فلشدة ما تحبه الحمى، تبكي لفراقه بدمع غزير فياض يجري من أربعة مواضع: من الموقين، وهما طرفا العين، مما يلي الأنف، ومن اللحاظين، وهما طرفا العين، مما يلي الصدغ. وفي الحقيقة

أن هـذا التعرق هو عملية تبريد فسيولوجية، يقوم بها الجسم كردة فعل للحمى الشديدة، التي تصيبه فجأة.

وفي قوله:

إذا ما فارَقَتني غَسَّلَتني   كَأَنّا عاكِفانِ عَلى حَرامِ

صـورة عجيبة تـدل على غزارة العـرق، حيث شبهـه بالغسل مـن الجنابة. أمـا اختصاصها بالحرام، فهذا مـن روائع صور أبي الطيـب، وكأنه يريد أن ينتقم من هذه الزائرة الثقيلة، التي لا تأتيه إلا خلسة، وقد هجع النيام.

وضفـاف النيـل كانت ولا تـزال موطنًا من المواطـن الشهيرة لحمى الملاريا خصوصًا نوع (P. Vivax)[(١)]، وذلك لتوفر الرطوبة العالية ودرجـة الحرارة المرتفعة، وهما عامـلان حاسمان في توفر البيئة المناسبة، لتكاثر البعوض الذي ينقل طفيل الملاريا.

والذي يتضح من سياق الأبيات، ومن معرفة سيرة أبي الطيب المتنبـي: أن الحمـى التي أصابتـه إبَّان إقامتـه في مصر ليست من النـوع الخطير، الذي يتسبب في أغلب الوفيات من الملاريا، وهو نوع الفالسيبرم (P. Falciparum)، بل هو أحد الأنواع الأربعة الأخرى، التـي تسبب حمى مزمنة، يصاحبها صداع متكرر، وآلام مبرحة في العضلات والمفاصل، حيث تستمر هذه الأعراض لعدة أشهر، بنمط محدد، ووتيرة متناقصة كما سيأتي تفصيله بعد قليل.

(1) http://www.cdc.gov/malaria/new_info/2014/malariaegypt.htm

ج: إضاءات طبية[1]

الملاريا هي مرض معدٍ، يسببه كائن طفيلي، يسمى البلازموديوم، ينتقل عن طريق بعوضة الأنوفيليس، التي تحقن الطفيل في مجرى الدم، لينتقل مباشرة إلى الكبد، حيث ينمو ويتكاثر دون أن يشعر المصاب بأي عرض.

بعد ذلك يتسلل هذا الطفيلي داخل كريات الدم الحمراء، حيث ينقسم إلى أقسام عديدة، تؤدي إلى انفجار خلايا الدم الحمراء، وإفراز الطفيليات، وما يصاحبها من سموم إلى مجرى الدم مباشرة.

تستثير هذه العملية جهاز المناعة، فيقوم برفع درجة حرارة الجسم لمقاومة هذا الطارئ الغريب، ويشعر وقتها المريض بالحمى الشديدة.

وما أن تنتهي هذه العملية حتى تعود حرارة الجسم إلى معدلها الطبيعي، وربما نقصت أحيانًا عن المعدل، فيحس المريض وقتها بالبرد والرعشة الشديدة، ومن هنا سمتها العرب بالبرداء[2].

(1) http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs094/ar/

(٢) من المسميات الأخرى لحمى الملاريا عند العرب: حمى الرِبع، وذاك أنها تصيب المريض يومًا ثم تتركه يومين، وتعود إليه في اليوم الرابع. قال الشنفرى في لامية العرب:

وإلف هموم ما تزال تعوده — عيادًا كحمى الرِبع أو هي أثقل



ويساهـم التعـرق في تبريد الجسـم، وينشأ كردة فعـل فسيولوجية لنوبة الحمى المفاجئة.

تعود هذه العملية بجميع أطوارها على شكل دورات منتظمة في أوقـات محددة، كل يومين أو ثلاثـة أو أربعة أيام، بحسب نوع طفيل الملاريا.

ومـن الأعراضـ الشائعة التـي تصيب جميـع مرضى الملاريا تقريبًـا الصـداع المتكـرر والإرهـاق الشديـد، الـذي يصاحبه ألم مستمر في العضلات.

وقد تسبب الملاريا أنيميا حادة بسبب تكسر خلايا الدم داخل الأوعيـة الدمويـة (Intravascular hemolysis). ولذلـك غالبًا ما يعتري المريض شحوب شديد بسبب فقر الدم.

وبالإضافة إلى ذلك، قد تؤدي الملاريا إلى نقص شديد في صفائح الـدم، مما يجعل النزيف خطرًا محققًا على الحياة. ويجدر بالذكر أن نقصان الصفائح أحد النذر الأولية، التي تدل على شدة الملاريا.

أنواع الملاريا:

تنقسم الملاريا بحسب خطورتها على حياة المريض إلى نوعين رئيسين:

١- **ملاريا خطيرة**، وهي مرض فتاك يهدد حياة أكثر من مليون إنسان سنويًّا يسببه نوع الفالسيبرم (P. Falciparum)، وهو النوع السائد في أفريقيا، وفي أجزاء من الجزيرة العربية[1]. تستمر حضانة هذا الطفيلي من أسبوع إلى ثلاثة أسابيع بعد لدغة البعوضة، لتبدأ بعدها أعراض الملاريا بشكل حاد، على هيئة صداع وحمى شديدة، وقد تتطور بشكل سريع إلى ملاريا عصبية تؤثر على المخ والجهاز العصبي (Cerberal malaria) في حال عدم العلاج، أو عند من يعانون ضعفًا في جهاز المناعة.

وفي مراحله الأخيرة يتحول الملاريا إلى مرض عام، يؤدي إلى فشل في وظائف أعضاء الجسم المختلفة: كالكلى والكبد وجهاز التنفس، ومن ثم الوفاة. ولذا تأتي أهمية التشخيص المبكر، والتدخل العلاجي السريع قبل تطور الحالة المرضية.

وهذا النوع بالذات يمثل كابوسًا حقيقيًّا في الأوساط الطبية، إذ توجد منه حالات مقاومة لمضادات الملاريا المتوفرة حاليًا.

٢- **ملاريا حميدة**، وهي عبارة عن حمى مزمنة، قد تستمر أكثر من ثلاثة أشهر، يصاحبها آلام في المفاصل وصداع متكرر، وقد تؤدي إلى فقر دم حاد بسبب تكسر الدم. ويتميز هذا النوع

---

(١) مختصر تاريخ الطب العربي (١/١٩١- ٢١٥).

بــأن الفترة بين دورات الحمى أطـول قليلًا من النوع السابق، إذ قد تصل إلى أربعة أيام. وهذه الحمى تسببها الأنواع الأخرى من طفيل الملاريــا وهــي (P.Vivax، P. Knowlesi، P.Ovali، P.Malari)، والتي تنتشر في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.

وبعضـ هذه الأنواع يتميز بوجود طور كامن في الكبد قد يؤدي إلــى رجــوع المرض بعد مدة طويلــة، ولذا لا يقبل التــبرع بالدم من إنسان ثبت عنده الإصابة بالملاريا ولو مرة واحدة.

الوقاية من الملاريا:

تتخذ عملية الوقاية من الملاريا مسارين رئيسين:

١- **الصعيــد المجتمعــي**: يجب مكافحة البعوض بردم وتجفيف المستنقعات الموبوءة، والحرص على وضع الشبابيك ضيقة الفتحات على النوافذ والأبواب، خصوصا في فترة ما قبل الفجر، فهي الفترة التي تنشط فيها بعوضة الأنوفيليس. كما ينبغي زيادة الوعي الصحي بين أفراد المجتمع بأهمية تكامل الجهود في مكافحة الملاريا.

بالإضافة إلى ذلك، يجب على الأطباء التأكد من توفر الأدوية اللازمة لعــلاج الملاريا، ورفع درجة الاشتبــاه في إصابة أي مريض بالحمى، لا سيما إذا كان قادمًا من منطقة موبوءة.

٢- الصعيد الفردي: يجب على الأفراد تجنب السفر إلى مناطق الملاريا قدر الإمكان، وفي حال السفر ينبغي أخذ المضادات المناسبة للملاريا والاستمرار عليها في أثناء السفر، وبعد العودة لمدة أربعة أسابيع، لأن فترة الحضانة قد تستمر كل هذه المدة.

كما يجب اتخاذ جميع الوسائل المتاحة لتجنب لدغ البعوض، كارتداء ملابس ذات أكمام طويلة تغطي الذراعين، ولبس الجوارب التي تغطي الساقين، واستخدام المراهم الطاردة للبعوض.

ومن الأخطاء الشائعة التي يرتكبها بعض المسافرين إلى المناطق الموبوءة بالملاريا، أن يترك الاحتياطات الوقائية بعد مرور مدة من الوقت ظنًّا منه أن جسمه قد اكتسب مناعة ضد الملاريا، مثل السكان المحليين. وهذا خطأ جسيم كثيرًا ما كلف الرحالة حياتهم، لأن المناعة الدائمة ضد الملاريا لا تكتسب بهذه السرعة، وانما تنشأ عبر الوراثة، حيث تتأقلم خلايا الدم عبر أجيال عديدة لمنع طفيل الملاريا من دخول خلية الدم. وهذا التكيف يأخذ انماطًا عديدة، كتحور بعض الخلايا بسبب وراثة الأنيميا المنجلية (Sickle cell trait)، أو بسبب نقصان بعض الإنزيمات في خلايا الدم الحمراء، مثل G6PD، أو بعض المستقبلات، مثل Duffy blood group.

أما المناعة المؤقتة فتكتسب عادة بعد الإصابة بالملاريا، ثم ما تلبث أن تزول بمجرد أن يفارق المرء مناطق الملاريا.

د: متلازمة المتنبي[1]

يقصــد بهــا مجموعة أعراضــ نفسية وسلوكيــة، تشكل نمطًا نفسيًّا مميزًا لفئة مخصوصة من العباقرة العصاميين، التي يتوفر فيها شرطان أساسيان:

١- موهبة خارقة، تقترن مع طموح يجاوز عنان السماء.

٢- نشأة في وضع اجتماعي بئيس، يجمع بين فقر بالغ ومكانة متدنية.

وقــد تختلف طبائــع هــؤلاء بحسب عوامــل الوراثــة وظروف الحياة، لكن غالبًا ما يشتركون في السمات الشخصية التالية:

أولًا: الشك المفرط فيما يحيط بهم، وعدم الثقة في أحد، مما يــؤدي بهم إلى إعلاء قيم الفردية، والتخلي عن روح الجماعة. وقد بلغت هذه الصفة عند أبي الطيب منتهاها، حيث يقول:

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمــي أنــه بعض الأنـام

فهــو يشــك حتــى في أحبابه المقربــين، لمجرد أنهــم من جملة الخلــق. وهــذه الصفــة مقيتة جــدًّا في علــم الإدارة، لأنهــا تقوض عمليــة التفويض برمتها، وتلغيها تمامًا من حسابات المدير المصاب

(١) عذرًا أبا الطيب، فلم أجد أوفى من سيرتك، لبيان هذه المتلازمة المبتكرة!

بمتلازمة المتنبي، فيميل إلى احتكار السلطة، وفرض الرأي، وعدم الأخذ بالنصيحة. وما يلبث الناس أن يتألبوا ضده، وربما كاده بعضهم، فتتأكد ظنونه المسبقة، ويزداد توجسًا وشكًّا.

ثانيًا: الحساسية الزائدة من النقد، خصوصًا فيما يمس ذواتهم، أو عند التشكيك بقدراتهم، لدرجة أن يثور أحدهم لأمر يراه غيره عاديًّا، ويقوم بردود أفعال لا تتناسب أبدًا مع حجم الإساءة التي تعرض لها. ومن الملفت للنظر أن ردود الأفعال لا تتوجه مباشرة للشخص المسيء، بل تركز على تضخيم الأنا، بشكل مبالغ فيه. ألم تر أن المتنبي حين أساء له حساده لم يهج أحدًا منهم! وإنما ثار في وجه سيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في مخاصمتي

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

ثم فخر بنفسه فخرًا، لا يدع قولًا لخصم ولا لحكم:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأنني خير من تسعى به قدم

فلما أحس أنه قد انتصف لنفسه هدأت ثائرته:

إن كان سركم ما قال حاسدنا

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهـؤلاء يتمتعـون بحسـن مرهف وبمشاعـر جياشـة تجاه من يحبونهم، ولكنهم يخشون التعبير عن هذه المشاعر خشية أن يحس الناس بضعفهم، فيتجرؤون عليهم.

ثالثًا: روح العجب والتعالي الذي يبلـغ حد الغـرور، ويرفع النفس عن مستوى البشرية:

تمـرسـت بـالآفـات حـتـى تـركـتـهـا

تـقـول أمـات المـوت أم ذعـر الـذعـر

وفي الحقيقـة أن هـذه الـروح المتعاليـة، تخفي خلفهـا هيكلًا داخليًّـا هشًّا، وغالبا ما تكون غطـاءً لعقد المتلازمة الثلاث: الفقر، والاحتقار، والتسلط.

وسرعان ما تتحول إلى اكتئاب حاد حال الإخفاق:

وأنى شئت يا طرقي فكوني نجـاة أو أذاة أو هـلاكًـا

التعامل الأمثل مع متلازمة المتنبي:

لا أجد أمثل من قول أبي الطيب نفسه:

ولم أر في عيوب الناس شـيئًا كنقص القادرين على التمام

إن أعلى درجات الإنجاز هو ما ولد من رحم المستحيل، وأعلى درجات النجاح هـو ما اقترن فيه الإنجاز العظيم، مع توازن أعظم بين ذات الإنسان وعلاقاته.

والتـوازن بين الذات والعلاقات، هو أهـم ما ينقص المصابين بمتلازمـة المتنبي، ولتحقيق قدر مقبول مـن هذا التوازن، لا بد من الخضـوع لعلاج معـرفي وسلوكي، يركز بالدرجـة الأولى على تغيير المفاهيم والتصورات الخاطئة، وغرس مفاهيم وسلوكيات صحيحة.

ومـن الأهمية بمكان، ألا يستنكف أي واحد من هؤلاء عن هذا العـلاج، حتى لـو كان بصورة فرديـة، عن طريق الكتـب والبرامج الحاسوبيـة المتخصصة في هذا الشأن. لأن استمرار النجاح منوط بتحقيق هذا التوازن.

وهنـا أربع قواعد ذهبية، ينبغي أن يعيها كل من لديه قدر من متلازمة المتنبي:

١- المواقـف السلبية التي تعرضت لها في صبـاك، لم يعد يتذكرها أحد سواك، فلا تذهب نفسك عليها حسرات، وإن استطعت أن تتذكرها بمشاعر محايدة فافعل.

٢- مخالـب الفقـر الغائرة، التـي نشبت في قلب الطفولـة الغض، لا يداوي أثرها المـال ولو كثر، ولا مظاهر البذخ ولو عظمت. وإنما

يداويهـا البذل والعطاء بشتـى صورهما الحسيـة والمعنوية، من ابتسامـة، إلى كلمة طيبة، فهدية خفية، ثـم صدقة لا يتبعها منٌّ ولا أذى. وسرعان ما تتحول هذه الجروح الغائرة التي كانت تقيح حقدًا وألمًا إلى موارد صافية، تمد الروح بما يقويها ويشد أزرها.

٣- الوضـع الاجتماعي البئيس، لا يتسبب فيه فرد، بل ولا طبقة من طبقـات المجتمـع، إذ هو خلـل في منظومة اجتماعيـة متكاملة، فـلا معنى إذن للانتقام من فرد أو مـن طبقة، بل ينبغي العمل الجماعي، لتصحيح مسار هذه المنظومة.

٤- العلاقـات التي تبنى علـى المشاعر وحدها سرعان ما تنقلب مع تغـير العاطفة، وإنما تـدوم العلاقة المبنية علـى حسن التعامل والتقـاء المصالـح. فـإذا أردت دوام العلاقـة فاجعلها مربحة للطرفين، واحذر فلتات اللسان.



الفصل الثالث

ابن الرومي

النزف يغتال واسطة العقد

أ: قصة ابن الرومي[1]

حسنــة بنت عبدالله[2] ، وقــد أسبلت عينيهــا ، فأوقفت نَفَسَها قليــلاً ، لئلا تنفث زفرة حرى، توقـظ صبييها النائمين على ذراعها اليســرى. لم تحتمــل طويــلاً ، فقامــت تــدور في بيتهــا الضيق، لعل خطواتها المتثاقلة أن تخفف عنها شيئًا من حرارة جوفها.

يــا الله! مــا أقسى لوعة الأســى، ومضض الفقــد، إذا اقترنت برعب الخوف من مصير مجهول في قلب أرملة غريبة.

مــات العباس، وماتت معه أزاهير الحب، الذي جمع بين الروم والفرســ في بلاد العرب. مات رفيق الغربة وأنيس الوحشة، وانقطع معــه سبب الرزق من قصور مواليه بنــي العباس، فمن سيدري بعد اليوم عن غريبة فارسية تعول أيتامًا لمولى رومي؟

أوشكت حسنة على الانهيار، وهي تتأمل في ولديها الصغيرين: جعفــر وعلي، وقد ناما ملء جفونهما. أسندت ظهرها إلى الحائط، ثم هوت إلى الأرض ودخلت في نوبة بكاء مريرة.

---

(١) للاستزادة، انظر: ابن الرومي، حياته من شعره، لعباس محمود العقاد.

(٢) والدة الشاعر علي ابن الرومي.



انقطع بكاؤها فجأة! ثم صرخت صرخة الغريق في وجه الموجة الهائجة، التي تكاد تبتلعه، ومن يدري لعل أسارير البحر أن تنفرج عن قشة توصله إلى بر الأمان.

تماسكت قليلًا، وجففت مآقيها، وسكنت أنفاسها المتتابعة، فانطلق صوت العقل خافتا: ليس الأمر كما تظنين، فالبذرة التي تنبت بعد حريق الحقل تكون أكثر نضارة وأصلب عودًا، والصخرة التي تقف في وجه الأتيّ[1] حال شدة اندفاعه، ينكسر عنها السيل، وقد رفدها بما يشد أزرها.

وهكذا مضت الأيام الأولى على حسنة بعد وفاة زوجها بين حزن وتجمل:

الحزن يقلق والتجمل يردع   والدمع بينهما عصي طيع

يتنازعان دموع عين مسهد   هذا يجيء بها وهذا يمنع[2]

رأت حسنة أن غاية الوفاء لحبيبها الراحل أن تقف نفسها على رعاية ثمرة الحب بينهما. استجمعت قواها، وعقدت عزمها على أن تكون لهم أمًّا وأبًا، وأخًا صديقًا في الوقت ذاته، وما داما في حياتها كل شيء، فلتكن هي في حياتهم كل شيء أيضًا.

---

(١) الأتي: هو السيل القادم من بعيد في اندفاع وشدة.

(٢) البيت والذي قبله، لأبي الطيب المتنبي، انظر: شرح البرقوقي (٣/ ٩).

كان جعفر آنذاك صبيًّا مميزًا، أما علي فقد كان في المهد رضيعًا. وبحزم الأب رسمت مستقبل أولادها، وقسمت الأمر بينهما، فجعفر لاكتساب العيش، وعلي لطلب العلم.

وبتوجس الغريب أحاطت نفسها وأولادها بسياج من العزلة، فنشأ علي هادئًا وديعًا، يميل إلى اللعب مع نفسه وحيدًا، وينفر من الخلطة، ويأبى المشاركة، ويزعجه كل عمل جاد، بخلاف أخيه الأكبر، الذي ألبسته الحاجة رداء العمل الغليظ، ولما يخلع العمر عنه إهاب الطفولة بعد.

لم يجاوز علي حمى البيت، ولم يختلط بالناس عن كثب، حتى دخل الكتّاب لتعلم القراءة والحساب، وحتى في هذه المرحلة كانت أمه الحازمة تأخذ بيده جيئة وذهابًا، وعذرها في ذلك فساد الناس.

حفظ علي القرآن، وحذق العربية، ونظم الشعر، حتى عرفه الناس بابن الرومي. وما أن شب عن الطوق، حتى تمرد على كل شيء! أخذ المال من أخيه وأمه وأنفقه في كل وجه. فاجتمع له الأصحاب كما يجتمع القطا على مشرع الماء العذب غداة يوم قائظ، وتتبع القيان ينشد وصالهن، وينظم فيهن الشعر.

لم يكـن خبيرًا بجمع المال، وإنما كان بصـيرًا بإنفاقه، فأتلف ذات يـده، وأملـق أملاقًا شديـدًا، وعندها علم أن وفـاء الأصحاب سراب، وأن وصل الغانيات برق خُلّب[1]، فنطق الشعر على لسانه:

عدوك من صديقك مستفاد	**فلا تستكثرنَّ مـن الصِّحابِ**
فـإن الـداءَ أكـثرُ مـا تـراهُ	**يحول من الطعام أو الشراب**
إذا انقلبَ الصديقُ غدًا عدوًّا	**مُبينًـا، والأمـورُ إلـى انقلابِ**
ولو كان الكثيرُ يَطيبُ كانتْ	**مُصاحبةُ الكثيرِ من الصوابِ**
ومـا اللُّجَجُ المِلاحُ بمُروياتٍ	**وتلقى الرِّيّ في النُّطَفِ العِذابِ**

لم تكـن تجربتـه الأولى تجربـة العاقل البصـير، الذي يدرك مواضع خطئه، وإنما تجربة الرضيع، الذي وَضَع المر في فمه، فعاف لبن أمه.

لم تكن في الحقيقة سوى تمرد أهوج على سلطة من فكر عنه، وقرر بدلًا منه، وحرمه متعة التجربة.

فشلت التجربـة الأولى فشلًا ذريعًا، فانكفـأ ابن الرومي على نفسـه بعدها، وعاد إلى عزلته الأولـى يمقت الناس ويذمهم. كانت عزلته هذه المرة شديـدة، فهي بمحض إرادته أولًا، وناشئة عن ردة فعل حادة على تجربة مريرة ثانيًا.

---

(١) بَرْقُ خُلَّبٍ: خادع، لا يتبعه مطر، يضرب مثلًا لمن يَعِدُ ولا يُنْجِز.

إن كل من يلج هذا الكهف، ويطيل المكث فيه، ستتمحور أفكاره حتمًا حول مشاعره، وتتضخم أخطاء الآخرين في عينه، فلا يغفر لهم زلة، ولا يتجاوز لهم عن إساءة.

وبالمقابل يزداد تعلقه بدائرة الأقارب اللصيقة، التي تتولى أمره، وتكفيه مؤنة عيشه، وفقد أي واحد من هؤلاء يفجر في نفسه بركانًا لا يخمد، ونار لظى لا تنطفئ.

وهكذا صبغت العزلة حياة ابن الرومي وشعره، فدار بين حس مرهف، وسخرية لاذعة، ورثاء يقطع نياط القلوب.

كان هجاؤه رسمًا ساخرًا من الحياة وأهلها، وربما هجا الرجل، فأضحكه على نفسه:

يقتر عيسى على نفسه　　　وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره　　　تنفس من منخر واحد

يعتكف في بيته برهة من الدهر، ثم يخرج إلى السوق، فإن رأى أعرج أو أعور تشاءم به وهجاه، ثم رجع إلى بيته. وخرج مرة فعارضته جنازة، فجعل يهجو الميت، ويحرض منكرًا ونكيرًا عليه!

تحامى الناس لسانه، فلم يقبل منه أحد مدحًا، خشية أن ينقلب عليه هجاء ساخرًا، فانقطعت أسباب عيشه، وساءت حالته.

أمـا الرثـاء فله شأن آخر عنـد ابن الرومي، فالمـوت لا يسلبه قريبـه فحسب، بل يزيد مـن ترديه في كهف عزلتـه الكئيب، ويغلق عليه منفذًا من منافذ النور إلى الأبد.

تمـوت خالتـه، فيخيل إليـه أن القيامة قد قامـت والأرض قد بدلت، فكيف إذا ماتت أمه، التي كان يحيا بروحها:

أفيضا دمًا إنَّ الرزايا لها قِيَمْ
فليس كثيرًا أن تَجُودَا لها بِدمْ

ولا تستريحا من بُكاء إلى كرًى
فلا حمد مالم تُسعداني على السأم

رزيئة أمٍّ كنتُ أحيا بِرُوحِها
وأستدفعُ البلوى وأستكشفُ الغُمم

تتابعـت على فـؤاده الأحزان، وفني أقرباؤه واحـدًا تلو الآخر، حتى إذا بقي وحيدًا، اضطر للخروج من كهف عزلته، وتزوج، فرزق ثلاثة صبية، كانوا بعثًا لروحه، وريًّا لنفسه، وشفاء لقلبه.

ومـع أن محمدًا لم يكن أكبر الأولاد، إلا أنه كان ريحانة الفؤاد وسلـوة الروح، ولعل هذا يعود لجمال طلعته وحلاوة لسانه، أو ربما لأنه تأخر في المشي قليلًا فتعلق به والده حبًّا وإشفاقًا.

إن ضمة واحدة لريحانة قلبه تزيل ما لحق بروحه من ضنى الفقد وشجى الفراق. لقد غير الطفل الصغير نظرة والده إلى كل شيء، فالبيت لم يعد كهفًا للعزلة، بل مسرحًا للعب مع محمد، والسوق لم يعد مجمعًا لأرباب الجشع والبخلاء، بل متجرًا لألعاب محمد، لم يعد يضجره فضول الناس وتطفلهم على حياته، طالما أنهم يسألون عن محمد.

وأكثر من ذلك، لم يعد المجتمع مثارًا للسخرية وموضعًا للهجاء، بل غدا موئلًا للشفقة والرثاء. تسقط البصرة بأيدي الزنج[1]، فيرثيها من بغداد رثاء يدمي القلوب، ويحرك جيوش الخلافة:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام
شغلُها عنه بالدموع السِّجام[2]

أيُّ نومٍ من بعد ما انتهك
الزنجُ جِهارًا محارمَ الاسلام

دخلوها كأنهم قطَعُ الليلِ
إذا راحَ مُدْلهمَّ الظلامِ

---

(١) ثورة كاسحة قامت ضد الدولة العباسية، ابتدأت سنة ٢٥٥ هـ، وتمركزت حول مدينة البصرة. سميت بثورة الزنج، لأن عمادها كان الرقيق الأسود، الذي كان يعمل في مزارع البصرة. قضت عليها الدولة العباسية سنة ٢٧٠ هـ بعد حروب مضنية وطويلة.

(٢) سجم الدمع: سال وتقاطر على الخد.

كم رضيعٍ هناك قد فطموه
بِشَبا السيف قبلَ حينِ الفطامِ

كم فتاةٍ مصونةٍ قد سَبَوْها
بارزٍ وجهُها بغير لثامِ

انفروا أيها الكرامُ خِفافًا
وثقالًا إلى العبيدِ الطَّغامِ

خطى محمد خطواته الأولى، وقد غار منه حتى الورد، فأهداه حمرته بين الفينة والأخرى. ازداد الأب به تعلقًا وحبًّا، ولم يدر أي هدية أهداها الورد له.

خرج ذات غداة وقد روّى نفسه من ضم محمد وتقبيله، فلما جاوز عتبة الدار تبعه محمد فتعثر وسقط. أسرع إليه واحتمله، وإذا أنفه وركبتاه تسيلان دمًا. حاول إيقاف الدم فلم يستطع، صاح بالناس، فاجتمعوا له بين راق ومتطبب، فزاد الدم فورانًا، حتى ذوى الصبي في أيديهم وأبوه ينظر، غارت عيناه، وغابت حمرة الورد من خديه، وحلت محلها صفرة الزعفران.

تحول الرقاة إلى مواسين، والأطباء إلى معزين، وأبوه لا يغضي عنه طرفة عين، وكأنما يودع روحًا لا حياة له بعدها.

يـا لمحمد! يا لنفحة نسيم باردة، هبت من تلقاء سحابة صيف عارضة على روح من ألهب الظمأ جوفه في هجير المفازة المهلكة.

كان محمـد سببًا أخرج أبـاه من غيابة الجب، فلما بلغ شفاها انقطـع به فهوى. مات محمد، ومات معـه المستقبل، كما مات قبله الماضي:

بكاؤكُما يشفي وإن كان لا يجدي
فجودا فقد أودى نظيركمُا عندي

بُنَيَّ الذي أهدته كفَّاي للثَّرى
فيا عزَّة المهدى ويا حسرة المهدي

ألا قاتل اللّهُ المنايا ورميها
من القومِ حَبّات القلوب على عَمدِ

توخَّى حِمَامُ الموت أوسطَ صبيتي
فلله كيف اختار واسطة العقدِ

على حين شمتُ الخيرَ من لَمَحاته
وآنستُ من أفعاله آية الرُّشدِ

طواهُ الرَّدى عنِّي فأضحى مَزارهُ
بعيدًا على قُرب قريبًا على بُعدِ

لـقـد أنجــزتْ فيـه المـنـايـا وعـيـدَهـا
وأخـلـفَـتِ الآمــالُ مـا كـان مـن وعـدِ

لـقـد قـلَّ بـيـن المهـد والـلَّـحـد لبـثُـهُ
فلم ينسَ عهد المهد إذ ضمَّ في اللَّحدِ

تـنـغَّـصَ قَـبـلَ الــرَّيِّ مــاءُ حَـيـاتـهِ
وفُــجِّــعَ مـنـه بـالـعـذوبـة والــبـردِ

ألــحَّ عـلـيـه الـنَّـزفُ حـتـى أحـالـهُ
إلـى صُفرة الجـاديِّ عن حمـرة الـوردِ

وظـلَّ عـلـى الأيــدي تـسـاقـط نَـفْـسُـه
ويذوِي كما يذوي القضيبُ من الرَّنْدِ

عجبتُ لقلبي كيف لم ينفطرْ لهُ
ولـو أنَّـهُ أقسـى مـن الحجر الصَّلدِ

بــــودِّي أني كـنـتُ قُـدمْــتُ قبلهُ
وأن المنايا دُونـهُ صَـمَـدَتْ صَمدِي

وإنّي وإن مُـتِّـعـتُ بـابـنـيَّ بـعـده
لَـذاكـرُه مـا حـنَّـتِ الـنِّـيـبُ في نجـدِ

وأولادنــــا مــثـلُ الجَــــوارح أيُّـهـا
فقدناه كـان الفـاجـع الـبَـيِّنَ الفقد

هلِ العينُ بعدَ السَّمع تكفي مكانهُ
أم السَّمعُ بعد العينِ يهدي كما تهدي
لَعمري لقد حالتْ بيَ الحالُ بعدهُ
فيا ليتَ شِعري كيف حالتْ به بعدِي
أرَيحانة العَينينِ والأنفِ والحشا
ألا ليتَ شعري هلْ تغيَّرتَ عن عهدي
كأني ما استَمْتَعتُ منك بنظرة
ولا قُبلة أحلى مذَاقًا من الشَّهد
كأني ما استمتعتُ منك بضمّة
ولا شمَّة في ملعبٍ لك أو مهدِ
ألامُ لما أُبدي عليك من الأسى
وإني لأخفي منه أضعافَ ما أبدي
محمَّدُ ما شيءٌ تُوهِّم سلوة
لقلبي إلاَّ زاد قلبي من الوجدِ
أرى أخويكَ الباقيينِ فإنما
يكونان للأحزَانِ أورى من الزَّندِ
إذا لعِبا في ملعب لك لذَّعا
فؤادي بمثل النار عن غير ما قَصدِ

فما فيهما لي سَلوة بلْ حَزَازة
يَهيجانِها دُوني وأَشقى بها وحدي

وأنتَ وإن أُفردْتَ في دار وحْشة
فإني بدار الأنسِ في وحشة الفردِ

ومن كانَ يَستهدي حَبِيبًا هَديَّة
فطيفُ خيالٍ منك في النوم أستهدي

عليك سلامُ الله مني تحيَّة
ومنْ كل غيثٍ صادقِ البرْقِ والرَّعدِ

لم يكن موت محمد خاتمة الأحزان، وإن كان أشدها، بل سرعان ما لحقه أخواه الآخران. وهكذا أصبح فؤاد ابن الرومي في غشاء من الرزايا والمحن، فلم يعد يرثي ميتًا ولا يبالي بموت أحد.



ب: تحقيق سبب الوفاة

مما لا شك فيه أن سبب موت محمد هو نزيف الدم الحاد، الذي حول لونه من احمرار الورد إلى صفرة الجادي وهو الزعفران. ويغلب على الظن أن سبب هذا النزيف هو مرض وراثي يدعى النزاف أو الهيموفيليا (Hemophilia).

وينتج هذا المرض من نقص أحد البروتينات المسؤولة عن تخثر الدم مما يؤدي إلى زيادة سيولة الدم وحدوث النزيف المتكرر.

وتختلف شدة النزيف طبقًا لمقدار النقص في عامل التخثر، حيث تصل إلى حد الوفاة في حالات النقص الشديد، خصوصًا عند حدوث النزيف من عدة أماكن في الجسم، أو في الأعضاء المهمة كالدماغ.

وهذا المرض لا يمكن علاجه إلا عن طريق تعويض الجسم بالبروتين المفقود، ولذا يموت أغلب المرضى سابقًا في سن مبكرة جدًّا.

والهيموفيليا مرض وراثي يرتبط بالجنس، حيث يصيب الذكور في أغلب الحالات، ولا يصيب الإناث إلا في حالات نادرة جدًّا.

ويكـون نمو الطفل المصاب بالهيموفيليا سليمًا، ولا تظهر عليه علامـات مبكرة سوى بعض الكدمـات السطحية التي تزول سريعًا، ومـا أن يبتدئ بالمشي حتـى يبدأ النزيف في ركبتيـه وفي عضلاته، ممـا يؤخر عمليـة المشي لديـه بسبب الضرر الحاصـل في مفاصل الركبة والحوض.

ويبدو أن محمدًا مات ولم يجاوز الثالثة بدليل قول أبيه:

لقد قلَّ بين المهد واللَّحد لبثُهُ

فلم ينسَ عهد المهد إذ ضمَّ في اللَّحدِ

ثم وصف طريقة موته المحزنة بثلاثة أبيات، تقطر لوعة وأسى:

تنغَّصَ قَبلَ الرَّيِّ ماءُ حَياتهِ

وفُجِّعَ منه بالعذوبة والبردِ

وماء الحياة هنا هو الدم، ويعني أن النزف أحال جسمه باردًا، لأن الدم هو مصدر الدفء للأعضاء الطرفية.

ألحَّ عليه النَّزفُ حتى أحالهُ

إلى صُفرة الجاديِّ عن حمرة الوردِ

ويعني هنا الشحوب الذي اعتراه بسبب النزف الشديد، الذي ألح عليه حتى غير لونه من حمرة الورد إلى اصفرار الزعفران.

وظـلَّ علـى الأيــدي تسـاقط نَفْسُـه

ويذوِي كما يذوي القضيبُ من الرَّنْدِ

وهذه الصورة الحزينة في غاية الشاعرية، فهو يشبّه ابنه الذي ذوى عوده عندما نزف مـاء حياته، بقضيب الرند الذي جف ماؤه، فذبل وذوى. والرند نبت طيب الرائحة، يسمى ورقه ورق الغار.

أمـا أخـواه الأخران فلم أجـد مصدرًا يبين كيـف ماتا، ولكن موتهمـا وهما صغيران جـدًّا دليل يؤكد الطبيعـة الوراثية للمرض. ويترجـح عنـدي أن الهيموفيليا التـي أصابت أبنـاء الشاعر أتتهم مـن جهة الأم، لأن الأنثى إذا كانـت حاملة للمرض فستنقله لجميع أولادها الذكور، أما الإناث فيكون نصفهن ناقلًا للمرض، والنصف الآخر سليمًا.

ومما يثبت أن المرض الذي أصاب أبناءه كان وراثيًّا من جهة الأم، أنـه تـزوج بعد وفـاة زوجته الأولى، فرزق ابنـا، ذكره في عدة قصائد، مدح بها القاسم ابن عبيد الله[1] وزير المعتضد. ويغلب على الظـن أن هـذا الابن لم يمت في حيـاة أبيه، إذ لم ينقـل أنه رثاه أو تفجع لفقده كما فعل مع أبنائه الثلاثة الأول[2].

---

(١) القاسم بن عبيد الله بن وهب وزير المعتضد، كان شهمًا مهيبًا، مات سنة ٢٩١ للهجرة.

(٢) ابن الرومي، حياته من شعره، للعقاد (ص ٧٥).

ج : إضاءات طبية[1]

النــزاف أو الهيموفيليـا هــو أكثر أمراض النزيـف الوراثية شيوعًـا عند الذكور، وينشأ بسبـب خلل جيني في بروتينات التخثر، خصوصًـا العامـل الثامـن (VIII Factor)، والعامـل التاسـع (Factor VIX)، حيـث يـؤدي هذا الخلل إلى نقصـ حاد في إنتاج هذه البروتينات، مما يجعل المريض عرضة للنزيف.

ونظـرًا لأن جينـات الهيموفيليـا تحمـل علـى الكروموسـوم الجنسي إكس (X–chromosome) فإنها تصيب الذكور غالبًا، لأن لديهـم كروموسومًا واحدًا من نـوع إكس (XY) بينما لدى الإناث كروموسومان (XX).

وعنـد توريث هـذا المرض، فإن الذكر إما أن يكـون مصابًا أو سليمًـا، أمـا الأنثى فقد تكـون حاملة للمرض، وليسـت مصابة إذا حدث الخلل في كروموسوم واحد فقط.

ولا تظهـر علامات المرض في مرحلـة الطفولة الأولى، ما خلا حـدوث كدمـات بسيطة، تزول مـع مرور الوقت. ولكـن قد يكتشف المرض مبكرًا في المجتمعات التي تجري عمليـة الختان بعد الولادة بوقت قصير، حيث يكون النزيف شديدًا.

---

(1) Postgraduate Hematology; V. Hofbrand page 720753-

ومـا أن يبـدأ الطفـل بالمشـي أو الحبو، حتى يحـدث النزيف داخـل المفاصل التي تحمل الجسم كالركبتـين مثلًا ، مما يؤدي إلى تورمهمـا ، وتأخير عملية المشي. وتكرار هذا النزيف يؤدي إلى تشوه المفاصل، وقد يسبب إعاقة مزمنة.

ويعـد نزيف العضـلات من الأعراض الشائعـة للهيموفيليا ، خصوصًا في منطقة الفخذ والبطن، وقد يحدث النزيف تلقائيًّا من دون أي إصابة في حالات النقص الشديد لعامل التخثر.

أمـا في حالات الإصابـة، فإن النزيف يكون شديـدًا جدًّا في أي موضع كانت الإصابة. ومن أخطر أنواع النزيف، هو ذاك الذي يحدث في الأعضاء المجوفة كالدماغ والأمعاء، إذ قد يؤدي إلى الوفاة.

علاج الهيموفيليا: يقوم علاج الهيموفيليا على ثلاثة أسس.

١ - التعامل الأمثل مع النزيف:

مـن الأهمية بمكان تثقيف المريض وأقاربه عن الطريقة المثلى للتعامـل مـع النزيف حال حدوثـه، والتي تقوم على أربـع إجراءات مهمة: الضغط، الرفع، الثلج، الراحة.

الضغـط: ينبغـي وضع ربـاط ضاغط حـول المفصل المجروح لتقليـل سرعـة النزف، ولكـن يجب إزالـة هذا الرباط حـال توفر العلاج، لئلا يقف تدفق الدم عن المفصل طويلًا.

الثلج: تبريد الجلـد يؤدي إلى انقباض الأوعية الدموية، ومن ثم التخفيف من تدفق الدم إلى المنطقة المصابة.

الرفع: ويعني به رفع الذراع المصاب أعلى من مستوى القلب، لتقليل تدفق الدم.

الراحة: وتعني الهدوء وعدم استخدام المفصل المصاب، حتى يقـف النزيف تمامًا، ويتماثل العضـو للشفاء، لأن تحريك الطرف المصـاب يعرض العضلات والمفاصل لمزيد من النزيـف، ومن ثم المزيد من الضرر.

كمـا ينبغي تثقيـف المريض وأقاربه عن أفضـل طرق الوقاية، لتجنب الإصابـات المنزلية: كفرش البيت بالموكيـت والسجاد، بدلا مـن السيراميك، ولبس الأحزمة الواقيـة لمنطقة الركبة. كما يجب تجنب الرياضات العنيفة، التي قد تؤدي الى حدوث النزيف.

٢- العلاج

يختلف عـلاج الهيموفيليا تبعًا لشدة الحالـة، ولنوعية ومكان النزيـف. فالحـالات الطفيفـة يمكـن علاجهـا عن طريـق الحقن البطـيء لهرمـون الديزموبريسـين (DDAVP) في الوريد، أو عن طريـق الأنف. أما الحـالات المتوسطة والحادة فلا بـد من تعويض

الجسم بعامل التخثر الناقص، الذي يستمد من دم الإنسان المتبرع، أو من المنتجات المعدلة وراثيًّا.

ولمنع حدوث المضاعفات يمكن أن يقوم الطبيب بتدريب المريض ومن حوله على طريقة أخذ حقن هرمون الديزموبريسين، أو عامل تخثر الدم في المنزل أو العمل أو المدرسة، بحيث يأخذها مرتين إلى ثلاث مرات أسبوعيًّا.

٣- تأسيس مراكز العناية الشاملة لمرضى الهيموفيليا:

مراكز العناية الشاملة من أنجح وسائل معالجة الهيموفيليا، وذلك لأنها تقدم خدمات متعددة أخرى بجانب العلاج مثل طرق العناية الجسدية والنفسية، والعناية بالأسنان والعظام. وبالإضافة الى ذلك، فهي توفر خدمات مساندة، ترتبط بمعالجة الضغوط الأسرية والاجتماعية. يجدر بالذكر أن تأسيس مثل هذه المراكز يُعدُّ إجراءً فعالًا من الناحية الاقتصادية، لأنه يساهم في الوقاية من المضاعفات الخطيرة لمرضى النزف، التي يستهلك علاجها موارد اقتصادية هائلة.



د: تربية الاستحواذ

على مدى التاريخ شكل الأيتام علامة فارقة في تاريخ البشرية، وبالأخص أولئك الذين فقدوا آباءهم، وتربوا على أيدي أمهات عظيمات، أخرجن للعالم عباقرة، غيروا مسار التاريخ، وكان لهم القدح المعلى في قيادة ركب الحضارة نحو الرقي والتقدم. ومرد هذا النبوغ والعبقرية إلى أمرين أساسيين:

١- تحمل المسؤلية والاعتماد على النفس في سن مبكرة، مما يساعد على صقل المهارات، ويعزز جانب العلاقات عند الطفل، ويتيح له مخالطة ذوي الخبرة والتجربة.

٢- توفر قدر كبير من الحرية في تبني الآراء واتخاذ القرارت، مما يساهم في تنمية ملكة الإبداع، ويحفز القدرة على الابتكار.

ويتلخص دور الأم العظيمة في تعزيز ثقة الطفل بنفسه، وإذكاء روح المسؤولية لديه، دون المساس المباشر بحريته، لينشأ الطفل وقد اكتملت لديه ركائز الإبداع الثلاثة: الدافع الذاتي، والمهارات الأساسية، والعلاقات الناجحة.

وقد تخطئ بعض الأمهات فتستحوذ على كافة شؤون ابنها، وتتحمل جميع المسؤوليات عنه، وتتدخل في أدق تفاصيل حياته.

والأدهى من ذلك أن تلي بنفسها اتخاذ القرارات نيابة عنه، فيكبر الطفـل وقد افتقد حس المسؤوليـة، وضاق عليه أفق الحرية، وحرم من متعة التجربة وفائدتها.

إن أي طفـل كهـذا، سينشـأ منكفئًـا علـى نفسه، ميّـالًا للعب الفردي، مؤثرًا لما تعود عليه وما جُرب له. وغالبًا ما يكون اتكاليًّا، لا يستطيع أن يلي أمره بنفسه.

ومـع أن تربيـة الاستحـواذ قـد تلحق ضـررًا بالغًـا بمهارات النجـاح الأساسيـة، إلا أن أشـد أضرارها فداحـة، يكون في جانب العلاقات، فإمـا أن يكبر الطفل ساذجًا، يستغلـه ضعاف النفوس، أو يكون انطوائيًّا مؤثرًا للعزلة، وربما جمع بين السوأتين، كما حدث لابن الرومي.

وممـا يثير الشفقة أن يكون عنـد هؤلاء مواهب مميزة، تدفن في ثرى العزلة، ويقضي عليها الرهاب الاجتماعي، وافتقاد مهارات التواصـل. وقـد يكـون منهم العبقـري، الـذي يحتاج المجتمـع إلى فكـره المميـز، وموهبته الخارقة، فـلا يتوصل إليه أحـد، ولا يعرفه أهـل زمانه. وأمثـال هؤلاء تكون خسارتهم مضاعفـة، إذ يخسرون مواهبهم التي لا يقدرها أحد، ويخسر المجتمع إمكاناتهم الفذة.

قـد يحـدث الاستحـواذ مـن الأب والأم على حد سـواء، لكن وطأتـه تكـون أشد إذا جاء مـن قبل الأم، لقدرتهـا على الغوص في

أدق التفاصيـل بخلاف الأب، الذي يرسم الإطار العام، ويعجز عن متابعة دقائق الأمور غالبًا.

وهنا أربع قواعد ذهبية، ينبغي أن يعيها كل مربٍّ:

١- يولـد الطفل ولديه ملـكات عقلية كامنة، تمـده بقابلية التعلم، ولكن هذه الملكات مثل معدن الحديد الخام، يحتاج إلى الصقل حتى يكون سيفًا ماضيًا. وإنمـا تصقل ملكات الإنسان بالتلقين والتجربة والمخالطة.

فعـن طريق التلقين تنتقل خـبرة المربي في الحياة، وحكمته التي استفادهـا من نتائج تجاربه. أمـا التجربة فهي الامتحان الحقيقي، الذي يقوم به الإنسان لاختبار صحة المعلومات، التي استقاها عـن طريق التلقين. وسرعان مـا يشك المرء في صدق معلومات من يمنعه من التجربة، أو يملي عليه النتائج مسبقًا.

وبالمخالطة يتعرف الإنسان على طرائق جديدة في اكتساب المعرفة، ويتعلم فقه المقارنة بين الأشخاص والأشياء والأفكار.

وثمة أمر دقيق يجب أن ينتبه له الوالدان، والمربون عمومًا، ألا وهـو أن عزل الأبناء في مراحـل مبكرة، وأطرهم على أفكار المربـي دون نقاشـ أو سمـاح بالتجربة أو المقارنـة، سرعان ما يأتـي بمردود مناقضـ تمامًا، ولذا ترى كثيرًا مـن أفكار الآباء

تصبـح محل تندر بـين الأبناء، حالما يخرجـون من عباءة الأب ويخالطـون غـيره. وقد تكون هـذه الأفكار صحيحـة في ذاتها، ولكن المنع دائمًا ما يثير الفضول، ويجلب الشك.

وهـذا الأمر كما ينطبـق على الأفراد والأسـر، ينطبق على المجتمعـات أيضًا. فأي مجتمع تقـوم تربيته على التلقين، وعلى سياسة الخصوصية والانغلاق، وعدم الترحيب بتجربة الأفكار الجديـدة، سينعـم بالهدوء الداخلي، ويتمتـع أفراده بحالة من الوثوقيـة العالية، طالمـا بقي منغلقًا على نفسـه، ومتقوقعًا على أفـراده وأفكاره. ولكن الأمر سرعان ما ينقلب رأسًا على عقب، عندمـا يخرج بعض أفراده إلى مجتمعـات أخرى يقوم تعليمها على التجربة والمقارنة، فتكشف لهم المقارنة أحادية أفكارهم، وتتلاشـى لديهم حالة الوثوقيـة. وسرعان مـا يتبنى معظمهم أفكار المجتمع الجديد، لأنها تبدو أكثر إقناعًا ومنطقية، بسبب قبولها للتجربة، ومرونتها في تقبل النتائج.

يعود أولئـك الأفراد وقد أحاطهم المجتمـع المغلق بهالة من التوجس راصـدًا كل تغيير، طـرأ عليهم بعين الشـك والريبة. وفي المقابـل ينظر هؤلاء إلى المجتمع بعـين الناقد، الذي خرج من إطـار الصورة، فهو يتفحص أجزاءها مـن بعيد، ويقارن

بينها وبين الصور الأخرى. ومن هنا تنشب معركة البسوس بين المجتمع ذي الوثوقية العالية في أفكاره ونهج حياته، وبين أفراده الذين يسعون للتغيير بداعي اللحاق بركب التقدم والحضارة.

والمشكلة الكبرى تكمن في أن هؤلاء الأفراد يقومون بممارسة نوع من التلقين للمجتمع بوثوقية عالية في أفكارهم، التي اكتسبوها من تجاربهم الجديدة، فيعيدون الخطأ نفسه وهم لا يشعرون. يتحول بعدها الصراع إلى صراع أيديولوجي مرير، تكثر فيه الاتهامات، وتختفي الثقة، ويحل محلها الشك والريبة.

٢- استفادة الطفل من تجارب المربي لا تتجاوز ٣٠٪ في أفضل الحالات، فلا معنى لمنعه من التجربة، بحجة أنّا قد خبرنا الأمر، وجربناه من قبل، بل إن مجرد السماح له بالتجربة يزيد من ثقته فيما نمده به من أفكار وتجارب. وكثيرًا ما فضل الأطفال عدم المضي قدمًا بمجرد السماح لهم بالتجربة، إذ إن المنع أو الحرمان يشعل في قلب الإنسان جذوة فضول لا تنطفئ. ألم تر أن كثيرًا ممن حرم من ألعاب الطفولة وهو صبي عاد يلعبها كبيرًا.

٣- الجمع بين الحرية والمسؤولية سر عظيم من أسرار نجاح التربية، فالحرية تنمي ملكة الإبداع والابتكار عند الطفل،

والمسؤولية تحمله على التعلم، واكتساب المهارات، وتقدير المواقف، ودراسة نتائج التجارب؛ لاستخلاص العبر منها. ولا بد من اقترانهما معًا في كل الأنشطة التربوية، إذ الحرية بدون مسؤولية تقود إلى الفوضوية واللامبالاة، بينما المسؤولية بدون حرية تنشئ إمعةً غير قادر على الحركة دون إذن.

٤- الحاجة إلى التقدير تُعدُّ من أهم الحاجات البشرية بعد غرائز البقاء الأساسية. ومن هذا الباب ينبغي أن تدخل الأم الحصيفة، فتشعر ابنها بمدى حاجتها إليه، وعظم أهميته بالنسبة لها، وتكثر الثناء على صفاته الإيجابية، وعلى قدرته الفائقة على التعامل مع سلبياته.



الفصل الرابع

وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بين السم والحمى



أ: قصة الوفاة[1]

طيبــة.. وقد هفت شوقًا للقــاء حبيبها محمد ﷺ بعد أن غاب عنها شهرًا كاملًا في أثناء حجة الوداع. ما أطول الزمان، ومـا أشـد قسوته على المكان! ألم يتصاحبا منـذ أن خُلِق الكون؟ أم لأن الزمان ظرف مصاحب للحبيب، فلم يعد يشعر بالظرف المفارق له، فطالت أيامه ولياليه.

ولكن مهلا! فقريبًـا سينتصف المكان من الزمان، وطيبة على موعـد مع حبيبها، الـذي ستحتضنـه في جوفها، إلـى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

خواطر تتسلى بها طيبة، وهي تتشوق إلى طلعته مع ثنية الوداع. ليس البشر من ينتظر مقدمـه ويفرح برؤيته فقط، بل حتى المدينة بجبالهـا وأشجارها وأحجارهـا. لقد كانت أسعد شيء به حين قدم عليهـا أول هجرته، فلقد تغيرت إلى الأبد منـذ أن خطت القصواء عليهـا خطوتها الأولى. كان يحس بهـا، ويبادلها حبًّا بحب، بل كان يخبر أصحابه بذلك: «أحد جبل يحبنا ونحبه»[2].

---

(١) للاستزادة انظر: سيرة ابن هشام (٦/ ٥٥-٩٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٨/٢٤-١٣٢).

(٢) متفق عليه: البخاري (رقم٣٨٥٥)، ومسلم (رقم٢٤٧٤).

اسمهـا الـذي لازمها منـذ أن سكنها العماليـق لم يرضه لها، فغيره إلى ما هو خير منه وأطيب: المدينة، طيبة، المباركة....

بل حتى حُمّاها التي كانت علمًا بالإضافة إليها، دعا ربه فنقلت عنها، فلم تعد وباءً عامًّا كما كانت.

مـا أعظم بركته عليهـا، تآلفت به القلوب، حتـى أصبح أهلها إخوانًـا بعد أن كانت نهبًا للدسائـس والمؤامرات، ومسرحًا للحروب والنزاعات، وما يوم بعاث[1] عنها ببعيد.

لقـد غدت تسامـي مكة شرفًـا وفضلًا، فتلـك حرمها الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذه حرمها الخليل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن تلك يجبى إليها ثمرات كل شـيء، وهذه بورك في صاعها ومدها، وثمت فرق بين الغني بغيره والغني بنفسه، وفي كل خير.

وأعظـم مـن ذلـك أن وحد الله بـه رؤيتهـا، وأعلى مـن شأن رسالتها، حتـى أصبحت «إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

مـا أسعـد طيبة وما أقـر عينها! وهي تـرى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالعًا عليها من ثنية الوداع، يحف به جمع يكل الطرف عن الإحاطة به، بعد أن دخلها (ثاني اثنين) إبَّان هجرته.

(١) يـوم بعاث: معركة دامية شهيرة، حدثت في يثرب قبل الهجرة بخمس سنين، انتصرت فيهـا قبيلة الأوس وحلفاؤها على الخزرج ومن حالفهم. قتل فيها عدد كبير من سادات يثرب وزعمائها.



ولكـن ذاكرة المكان المتطاولة تعلم علم اليقين أن اكتمال البدر مؤذن بنقصه:

إذا تم شئ بدا نقصه ترقب زوالًا إذا قيل تم

إنهـا السنة الماضية التـي تعلمها الأرض، وتغفـل عنها أجيال البشر المتعاقبة. وطيبة وهي تعلم ذلك، لا يحزنها سوى انقطاع نزول الوحـي بين جنباتهـا، وإلا فلن يضيرها أن يظلـم ظاهرها ليضيء باطنها. إنها وإن كانت ستفتقد خطواته المباركة في مناكبها، إلا أنها ستضم جسده الشريف في جوفها حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فمـا تظنون أنها فاعلة بجسد من أفاض الله عليها بسببه بركات لا تنفـد وفضائل لا تنقطـع؟ إنها ولو لم تنه عن مس جسده لحفظته وفاء وحبًّا.

توالت الإرهاصات علـى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشعرة بدنو أجله، فقـد اكتمـل الدين وتمـت النعمة، وجـاء نصـر الله والفتح، ودخل الناس في الدين أفواجًا. ودع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس عامة في حجة الوداع، قائلًا: «**إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**»[1].

أمـا المدينـة فلها وداع خاص، خرج في ليلة مقمـرة منتصف صفـر إلى جبل أحـد، فصلى علـى الشهداء صلاة مـودع، ثم قفل راجعًا، ولكأني بأحد يرنو إليه بنظرة وداع وإجلال:

(١) سنن النسائي (رقم٣٨٦٧)

وأحسن منك لم تر قط عيني وأكرم منك لم تلد النساء

وخـرج ليلة أخـرى إلى البقيـع، فقال: السلام عليكـم يا أهل المقابـر، ليهـن لكم ما أصبحتم فيـه بما أصبح النـاس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى. ثم بشر أهل البقيع قائلًا: «إنا بكم للاحقون».

وفي آخـر يـوم من صفـر شهـد جنـازة في البقيـع، فلما كان بالطريـق راجعًـا ارتفعت حرارتـه، وأخذه صداع شديـد ، فعصب على رأسه عصابة تخفف من وجعه. واتقدت عليه الحمى حتى كان يجد سورتها[١] من فـوق العصابة. عاد إلى بيته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجد عائشـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تشتكي صداعًا وتقول: وارأساه ، فقال: «**بل أنا والله وارأسـاه**». ثم قال: «**ياعائشة: ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع ابهري من ذلك السم**».[٢]

استمـرت شكواه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحمـى والصداع مدة ثلاثة عشر يومًا حتى توفاه الله. كان في أولها يدور بين بيوته حتى ضعف عن الحركـة، فاستأذن أن يمرض في بيـت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فانتقل إليهـا يتهادى بـين الفضل بن العباس وعلي بـن أبي طالب، وقدماه تخطان على الأرض خطًا، فمكث عندها آخر أسبوع من حياته.

---

(١) سورتها: شدة حرارتها.

(٢) رواه البخاري (رقم٤١٦٥).



وقبـل خمسة أيام من وفاته اشتدت عليـه سورة الحمى، حتى أغمـي عليه، فصبوا عليه سبع قرب مـن آبار شتى حتى أفاق وقال: «**حسبكم، حسبكم**»[1].

آنس بعدهـا من نفسـه خفة، فدخـل المسجد وصلـى بالناس وخطبهـم على المنـبر، فكان مـن ضمن ما قالـه: «**إن عبـدا خيَّره الله أن يؤتيـه مـن زهـرة الدنيـا مـا شـاء، وبـين ما عنـده، فاختار ماعنـده**»[2]. ففهمهـا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقعد يبكـي، ويقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فجعل الناس يعجبون من فعل أبي بكر، كيف يبكي لعبد خيَّره الله بين الدنيا والآخرة»؟! لم يتفطنوا أن العبد المخير هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو بكر أعلمهم وأفقههم.

كانت الحمى تارة تشتد برسول الله حتى يغمى عليه، ثم تخف بـه حتى يصلي بالناس، ويقرأ بهم سورة المرسلات كاملة في صلاة المغرب[3].

وفي صـلاة العشـاء زاد عليـه المرض، فلم يستطـع الذهاب للمسجـد، وطفـق النـاس ينتظرونـه، فنهض ليقوم فأغمـي عليه طويـلًا، ثم أفاق وقال: «**أصلى النـاس؟**» فنهض ليقوم فأغمي عليه

---

(١) صحيح البخاري (رقم٤١٧٨).

(٢) الترمذي (رقم٣٦٦٠).

(٣) البخاري (رقم٤١٦٦).

مرارًا، حتى أمر أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فصلى بالناس بقية الصلوات، إلى أن توفي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وفي صلاة الظهر قبل يومين من وفاته وجد من نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبوبكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه ألا يتأخر، وجلس إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويسمع الناس التكبير.

انقطع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعدها عن المسجد، ولم يره الناس إلا في أثناء صلاة الفجر في آخر يوم من حياته. روى أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: بينما هم في صلاة الفجر يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي بهم لم يفجأهم إلا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه، ليصل إلى الصف، وظن أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحًا برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأشار إليهم بيده: أن أتموا صلاتكم. ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[١].

فرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، واستأذن أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسنح، ظنًّا منه بتعافي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ،

(١) البخاري (رقم٤١٨٣).

وما علم أنها النظرة الأخيرة. لقد كانت نظرة وداع لصحب كرام، آسوه بأنفسهم، وحكموه في أموالهم، وخالط حبه سويداء قلوبهم، حتى غدا أحب إليهم من أنفسهم ومن الناس أجمعين. أنها نظرة وداع للصلاة، قرة عينه، وراحته من نصبه. وهي كذلك نظرة وداع لمسجده الذي شيده بيده وعمر محرابه بتبتله وخشوعه، وصنع من عريشه سقفا تفئ إليه البشرية في حر جاهليتها اللاهب.

عادت الحمى لرسول الله كأشد ما كانت، وبدأ بالاحتضار فجعل يدخل يديه في ركوة فيها ماء، ويمسح بها على وجهه، ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**». ثم شخص بصره إلى السماء، وهو يقول: «**بل اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى**» ثلاث مرات[1]، فقبضت روحه، ومالت يده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



(١) البخاري (رقم٤١٩٤).



ب: تحقيق سبب الوفاة[١]

مما سبق إيراده يتضح أن لوفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب مباشر، وهو الحمى وسبب آخر غير مباشر، وهو السم.

أما الحمى فالوصف المذكور في الأحاديث الصحيحة ينطبق انطباقًا كاملًا على حمى الملاريا، فجميع مرضى الملاريا تبدأ أعراضهم بالصداع تقريبًا[٢]. أما نمط الحمى المذكور في الأحاديث فهو النمط المميز للملاريا، حيث تتقد حرارة المريض بشكل حاد لمدة ساعة أو ساعتين، ثم تنكسر سورتها، وترجع إلى المعدل الطبيعي، وربما نزلت عن المعدل أحيانًا، ويصاحبها تعرق غزير. تعود الحرارة إلى الارتفاع كرة أخرى بعد يوم أو يومين، وربما كل أربعة أيام بحسب نوع الملاريا.

ولذا صلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين صلاة المغرب، وقرأ بهم سورة المرسلات كاملة[٣]، وهي من أواسط المفصل، وسمعته أم الفضل بنت الحارث راوية الحديث، وهي في صفوف النساء

(١) كتبت هذا التحقيق بعد مناقشات مستفيضة مع كل من: البروفيسور شهاب المشهداني، رئيس وحدة أمراض الدم بجامعة الملك سعود، والدكتور محمد الهليل، رئيس قسم السموم بمستشفى الحرس الوطني.

(2) http://emedicine.medscape.com/article/221134-clinical

(٣) سبق تخريجه.



البعيـدة. وما أتت العشاء حتى عادت الحمى كأشد ما تكون ومنعته عـن الصــلاة بالناس، ثم مــا لبثت الحمــى حتى هــدأت عنه مرة أخـرى، فعاد وصلى بالناس صلاة الظهــر جالسًا. وفي هذا السياق دليل واضح على نمط حمى الملاريا.

وبمرور الوقت تشتد وطـأة الملاريا، وتؤثر على أجهزة الجسم المختلفة. حيث يؤدي فقر الدم الحاد إلى الانهاك الشديد والضعف العــام عن الحركة والمشــي. وسرعان ما تتحول إلى ملاريا عصبية (Cerberal malaria) تؤثـر علــى الجهــاز العصبــي، وتــؤدي إلــى الإغمــاء المتكرر، والتشنجات، ونقصان الوعي، ومن ثم الوفاة. وقد مر معنا تفصيل ذلك سابقًا.

أمــا السبــب غير المباشــر لوفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهــو السم، كما ورد في حديــث عائشــة الذي رواه البخــاري[1]. وقصة السم حدثت بعــد فتح خيبر في المحــرم من السنة السابعــة، عندما أهدت زينب بنــت الحارث اليهودية شاة مسمومة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأكل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذراع، وكان أكثر السم فيه، وأكل بعض الصحابة، فمــات بشــر بن الــبراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعصــم الله نبيه من المــوت غدرًا واغتيالاً، وقتلت المرأة قصاصًا لبشر.

---

(١) سبق تخريجه.



وبقي أثر السم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضحًا في مواضع من جلده، كما روى أنس في الحديث المتفق عليه: «فما زلت أعرفها في لهوات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1] أي في باطن حلقه. ولا شك أن آثار السم الداخلية كانت أعمق وأشد، كما سنوضح بعد قليل.

ويترجح عندي أن السم الذي دسته اليهودية للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يوم خيبر هو الزرنيخ (Arsenic)، وذلك وفقًا للشواهد التالية:

١- الزرنيخ هو أوسع السموم استخدامًا في التاريخ، ويطلق عليه ملك السموم، وذلك لتوفره بشكل طبيعي في قشرة الأرض، وإمكانية استخدامه بعدة طرق كوضعه في الأكل أو الشرب أو شحذ السلاح به، بل حتى غاز الزرنيخ يمكن استخدامه كسلاح كيميائي في الحروب والنزاعات.

ومن الميزات الأخرى للزرنيخ: أنه لا طعم له ولا رائحة ولا لون مميز، ويتأخر ظهور الأعراض على المجني عليه لبضع الوقت، مما يوفر وقتًا للجاني في حال أراد الابتعاد.

٢- ورد في صفة موت بشر بن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن لونه عاد كالطيلسان[2]. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: يعني

(١) متفق عليه: البخاري (رقم٢٦١٧)، ومسلم (رقم٢١٩٠).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢٤٧/١٠).

أن لونــه صــار أصفر شديد الصفرة. والطيلســان وشاح أصفر غليــظ يوضع على الكتف أشبه مــا يكون بالشال. وهذا يتفق مع الأعراضـ المباشرة للتسمم بالزرنيــخ، والتي تبدأ بتهيّج الجلد والأغشيــة المبطنــة للجهــاز الهضمــي، مما يــؤدي إلــى التقيؤ والإسهال وقد يصاحبها دم في الغالب.

وعند وصول الزرنيخ إلى مجرى الدم يؤدي إلى تكسر خلايا الدم مباشرة داخل الأوعية الدموية (Intravascular hemoly-sis)، ومن ثم إلى الصفار وفقر الدم الحاد.

واصفــرار اللــون ينشــأ من تراكــم البيلوروبــين، وهو مادة صفــراء تنشــأ مــن تحلــل الهيموغلوبــين عند تكســر الخلايا، وبالإضافــة إلى ذلك يساهم الشحوب الشديد الناشئ من فقر الدم الحاد في اصفرار الجلد أيضًا.

ويــدل وصف الطيلسان كذلك على تغــير سماكة الجلد، إذ إن مــن الآثــار المميــزة للتسمــم بالزرنيخ زيــادة سماكة الجلد (hyperkeratosis). وعنــد انتشــاره في أعضــاء الجسم يؤدي إلــى سقوط الشعر، وفشــل وظائف الأعضــاء المختلفة: كالكبد والرئتــين والكليتــين، حيث يمــوت أغلب المرضــى في حال عدم العلاج.

٣- إذا تجاوز المريض المرحلـة الأولية الحادة، يتم إخراج الزرنيخ مـن بلازما الـدم عن طريـق الكلية، حيـث يبلغ نصـف عمره (half-life) ١١ ساعـة تقريبـا[١]. ويتخلص الجسم منه بعد أربع أسابيع تقريبًا، لكن تبقى كميات مخزنة في الجلد والشعر والعظـام تـؤدي إلى الآثار طويلـة الأمد، كتبقـع الجلد وتثبيط عمل نخاع العظم (Aplastic anemia) ومن ثم إضعاف مناعة الجسـم. كما يؤدي إلى ارتفاع الضغـط المتعلق بأمراض القلب والأوعية الدموية[٢].

وهـذه الأعراض كان النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاني من بعضها، كتغير لون باطن حلقه المذكور في حديث أنس المتفق عليه، الذي مر ذكره آنفًا، والآلام التي كانت تعوده بين الفينة والأخرى، التي ذكرهـا في حديث عائشة. أما تثبيط مقاومة الجسم للأمراض فلعلـه كان هو السبـب وراء تفاقم حمى الملاريـا، التي أصابته عند وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ذكـر بعضهـم أن سبـب مـوت النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هـو (Aortic dissection) أو مـا يسمـى بتسلـخ الأبهـر عمـلاً

(1) http://www.atsdr.cdc.gov. Arsenic Toxicity
(2) Dangleben NL, Skibola CF, Smith MT. Arsenic immunotoxicity: a review. Environ Health. 2013;12(1):73

بظاهــر حديث عائشــة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «فهذا أوان انقطــاع أبهري من ذلك الســم»[1]، وهذا ليــس دقيقًا، لأن الأعراضـ المذكورة في الأحاديــث الصحيحــة لا تتفق مع هــذا المرض. فتسلــخ الأبهر (Aortic dissection) يبدأ بألم صدري مفاجئ وحاد جدًّا على هيئة طعنــة السكين يصاحبــه صعوبة في البلــع بسبب الضغط على المريء.

والأبهــر (Aorta) هــو الشريــان الرئيــس في جســم الإنسان، ويخــرج مباشرة مــن البطين الأيسر للقلب، بحيــث تغذي تفرعاته جميــع أجــزاء الجسم. وانقطــاع الأبهر داء حاد جــدًّا بحيث يصل أغلــب المرضــى إلــى الطوارئ وهــو في حالــة حرجة أو يمــوت قبل الوصول إلى المستشفى.

ولــذا ينبغي أن يصــرف الحديث عن ظاهــره بقرينة الواقع، الــذي وصفتــه الأحاديــث الصحيحة، ويحمــل على مــا أثبته العلم مــن الآثار طويلة الأمــد لسم الزرنيخ على القلــب والأوعية الدموية كارتفــاع الضغط المتعلق بأمراضــ القلب والشرايــين (hyperten-sion-related cardiovascular disease).

---

(١) سبق تخريجه



وخلاصة ما سبق إيراده في سبب وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مضاعفات سم الزرنيخ وآثاره طويلة الأمد قد ساهمت بشكل غير مباشر في إضعاف مقاومة جسده لحمى الملاريا حين أصابته بعد أربع سنين، فهو شهيد بالحمى وشهيد بالسم بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه. والله أعلم.



ج: إضاءات طبية[١]

الزرنيخ هو عنصر ثقيل موجود في الطبيعة حيث يحتل المرتبة العشرين من ناحية وفرته في قشرة الأرض، وفي المرتبة الرابعة عشرة من ناحية توفره في المأكولات البحرية.

الأضرار الصحية للزرنيخ: تاريخيًّا يعد الزرنيخ أكثر السموم شيوعًا في حالات الاغتيالات والانتحارات، ولكن هذه النسبة تضاءلت كثيرًا في الوقت الحالي بسبب سهولة الكشف عن الزرنيخ، وبقائه لمدة طويلة في جسد الضحية. ولكن خطر الزرنيخ لا يزال محدقًا من ناحية التعرض المزمن له، عن طريق مياه الشرب، أو عن طريق تناول المحصولات التي تسقى بمياه ملوثة بالزرنيخ.

وطبقا لمنظمة الصحة العالمية، فإن دولًا مثل بنغلاديش والصين والأرجنتين وتشيلي تعاني مشكلة حقيقة من زيادة نسب الزرنيخ في مياة الشرب والري، مما تسبب في أضرار صحية مؤكدة[٢].

ويجدر بالذكر أن تدخين التبغ يحتوي على كميات عالية من الزرنيخ، غير العضوي شديد السمية، لأن جذور التبغ تمتص الزرنيخ الموجود في قشرة الأرض.

---

(1) http://www.atsdr.cdc.gov. Arsenic Toxicity
(2) http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar



والزرنيـخ مصنف من قبل الوكالـة الدولية لأبحاث السرطان (IRAC) علـى أنـه سبب مؤكـد لسرطان الجلد والرئتـين والمثانة وسرطـان الـدم[1]. وبالإضافة إلى ذلك فالزرنيـخ مثبط للمناعة، سواء أدى إلى فشل نخاع العظم أو لم يؤد إلى ذلك[2].

سبـل الوقاية مـن أضرار الزرنيخ: مـادة الزرنيخ واحدة من عشر مواد كيميائيـة، تعتبرها منظمة الصحة العالمية من الأخطار الرئيسـة علـى الصحـة العامـة. وتوصـي بمراقبـة ميـاه الشرب خصوصًا، التي تنبـع من المياه الجوفية، بحيث تحتوي على أقل من ١٠ ميكروغرام لكل لتر. ومن الضروري كذلك مراقبة نسبة الزرنيخ في محصولات الأرز، التي تأتي من البلدان التي تحتوي تربتها على نسب عالية من الزرنيخ: كالصين وبنغلاديش وبعض مناطق الهند. وينبغـي كذلـك التوقف عن تدخـين التبغ، لأنه يحتـوي على كميات ضارة من الزرنيخ بالإضافة إلى أضراره الصحية الأخرى.

مما ينبغـي ذكره هنا: أن المأكولات البحرية تحتوي على نسب عالية مـن الزرنيخ العضوي (Organic Arsenic)، وهو مركب غير ضار، إذ يتخلص منه الجسم مباشرة دون امتصاص.



(1) http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar
(2) Dangleben NL, Skibola CF, Smith MT. Arsenic immunotoxicity: a review. Environ Health. 2013;12(1):73

د: إشكال علمي

استشكل بعضهم كيف يموت النبي صلى الله وعليه وسلم متأثرًا بالسم الذي عملته اليهودية زينب بنت الحارث، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٧٦]. وقد أجاب أهل العلم على هذا، فذكروا أنه معصوم من القتل على وجه القهر والغلبة.

فقد عصمه الله عَزَّوَجَلَّ من القتل مرارًا عديدة: كيوم أحد، وقد أحاطت به كتيبة فرسان قريش، ولم يكن معه سوى طلحة بن عبيد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد مقتل الأنصار واحدًا تلو الاخر، وكقصة الأعرابي الذي رفع عليه السيف وهو نائم تحت شجرة فسقط السيف من يده، وسيرد معنا كيف عصمه الله عَزَّوَجَلَّ من عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، عندما أرادا الفتك به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما أتم الله به النعمة، وأكمل به الدين، وأسلمت جزيرة العرب قاطبة، أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يجمع له بين أعلى المراتب مع النبوة والرسالة، وهي الشهادة في سبيل الله. وقد ذكر هذا جماعة من أهل العلم: كالزهري وابن مفلح في الآداب الشرعية[١].

---

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٣/ ٧٧-٨١).

جـاء في تفسير القـرآن الكريم للشيخ ابـن عثيمين: فإن قيل: كيـف يصح قول الزهـري: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـات شهيدًا؛ لأن اليهـود كانوا سببًا في قتله، وقد قـال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾؟ فالجـواب: المراد بقولـه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ حال التبليغ؛ أي: بلغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبدًا في حال تبليغه[1].

وروى البيهقي في دلائل النبوة أن عبد الله بن مسعود كان يحلف أن الله قد اتخذ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهيدًا، كما اتخذه نبيًّا[2].



(١) تفسير القرآن الكريم سورة المائدة، لابن عثيمين (ص ١٥٣-١٥٤).

(٢) دلائل النبوة (١٧٢/٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٥٨/٣)، وصححه، فقال: على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

الفصل الخامس

عامر بن الطفيل

«غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية»



أ: قصة عامر بن الطفيل[1]

عالية نجد، حيث يقف جبل «جبلة»[2] كالقلعة الشماء، يطاول عنان السماء، ويحرس السهل الممتد امتداد الأفق على جهاته الأربع. إنه المعقل الباذخ الذي أخذ من السماء سناءها، ومن الأرض ماءها ولم تعمل فيه يد، ولم يجر فيه معول. لكن ذنبه أنه وحيد في نجد فلا حصون ولا قلاع، فهو كالحسناء التي جهل الناس قدرها، إذ لم تجد من يساميها أو ينافس جمالها.

ليس من شأن العرب أن تبني القلاع أو تشيد الحصون، وإنما مَنَعتهم في حد سيوفهم، وحصونهم سروج خيولهم. ولكن الأمر مختلف هذه المرة، فقد تألبت الملوك على قبيلة عامر بن صعصعة، ورمتهم العرب عن قوس واحدة، وجاءهم جيش لا قبل لهم به، حتى لم يشك أحد أنه فناؤهم واستئصال شأفتهم. ولكن العبقرية سرعان ما حولت الضعف إلى قوة، والقلة إلى كثرة، عندما اعتصمت بالجبل، واتخذته حصنًا.

---

(١) للاستزادة من أخبار عامر بن الطفيل وقصة مقدمه على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انظر: الشعر والشعراء (١/ ٢٣٥)، والبداية والنهاية (٧/٢٧٦)، وسيرة ابن هشام (٥/٢٦٠).

(٢) جبلة: هضبة صخرية عملاقة تتوسط نجد، لها مدخل واحد من جهة الشرق، يسمى شعب جبلة. وهي ذات بعد تاريخي وأدبي، وتمتاز بأشجارها ومراعيها الخصبة. تنسب إليها العديد من القصص والأساطير العربية.

دخل بنـو عامر في شعـب جبلـة[١]، ورفعوا ذراريهـم إلى قلة الجبـل[٢]، وأقـام الفرسان في منتصف الجبل علـى ثمل الماء. أما الإبل فقد جعلوها في فم الشعب، وأعطشوها عشر ليال.

أقبلـت الجيوش، وأحاطت بهم من كل جانـب، وما لبثوا حتى اقتحمـوا عليهم الشعـب، ومضوا مصعدين في عرض الجبل، ولم يعلمـوا أي مكيدة وقعوا فيها. فلمـا اقتربوا من الإبل حل العامريون عقلهـا، واتبعوا كل بعير حجرين أو ثلاثـة، فأقبلت الإبل تحطم كل شـئ أمامها، وخبطت الناس حتـى فرقت جمعهم، وشتتت شملهم، فتبعها فرسان بني عامر يقتلـون ويأسرون، وانهزم الجيش هزيمة نكراء، وانتصرت عامر وأحلافها نصرًا مؤزرًا.

انتهت المعركة ورجـع الطفيل بن مالك العامري، ليجد زوجته الحبيبة وقد تعسرت ولادتها، وشارفـت على الوفاة. حاول إنقاذها بشتـى الطرق التـي تعرفها العرب، فلم يجد ذلـك نفعًا حتى ماتت زوجته أمام ناظريه.

خطـرت له فكـرة ألمعية ربما أنقذت حيـاة الجنين، رمحه الذي طالما انبعث الموت كريها من سنانه، ألا تخرج الحياة زاكية من نصله؟

---

(١) شعـب جبلـة: يوم من أعظـم أيام العـرب في الجاهلية، وقـع قبل الإسلام بـ٥٧ سنة، انتصرت فيه عامر وعبس على تميم وأحلافها من ملوك هجر والحيرة.

(٢) قلة الجبل: أعلى قمته.

عجبًا! إن الأداة هي نفس الأداة، بل اليد هي نفس اليد، ولكن القصد غير القصد، وبينهما ما بين الحياة والموت من تضاد وتناقض.

التقط رمحه بلمح البرق، ثم ألقاه بنفس السرعة التي أخذه بها. انتابه خاطر غريب، فهذه أول مرة يمسك فيها برمحه للطعان، ثم يرمي به دون أن يرى أثر الدم يسيل من حده.

نظر إلى وجهها الشاحب نظرة المذنب النادم إلى الضحية البريئة، التي طالما محضته صادق الود في السراء، وضمدت جراحه في الضراء. أيكون وداعها يوم فراقها الأبدي أن يبقر بطنها ويشق أحشاءها؟ أشاح بوجهه بعيدًا، وهو يلعن الحرب التي جعلت منه وحشًا، لا ينفتق ذهنه إلا عن هواجس الطعن والضرب والرمي.

ابتعد عن الخيمة قليلًا، فعادت الفكرة الملحة إلى ذهنه المضطرب، ألا يزال الجنين الذي طالما سعدا بتقلبه في أحشائها حيًّا؟ أتنقذ حياته طعنة رمح طالما خطفت أرواح الفرسان الصناديد؟

رجع إليها مسرعًا، ونظر إليها بهدوء نظرة الطفل الذي قدر له ألا يرى أمه إلا يوم وفاتها. خاطبته روحها. روح الأم الرؤوم التي ضحت بنفسها لأجل جنينها: اقدم ولا تحجم، بل أسرع، علك أن تدرك ما بقي في الجنين من نفس.

التقط رمحه مرة أخرى، كما يلتقط الجراح الحاذق مبضعه، وشـق بطنهـا برفق، وأخرج «عامـر» قد ازرق لونـه صارخًا بصوت ضعيف.

نعم.. إنه عامر تفـاؤلًا بطول عمره وسلامته، وعلى اسم جده الأكبر عامر ابن صعصعة.

نشأ عامر بين أترابه نشأة الأبطال، يردد مآثر قومه وبطولات آبائـه، وينتقـل مع قبيلته في أنحاء نجد شتـاء، وفي أكناف الطائف صيفًا. وما أن شب عن الطوق حتى طارت بأخبار فروسيته الركبان، وبلغ من شجاعته أن عد رابع أربعة انتهت إليهم شجاعة العرب.

يقـول فارس العرب عمرو بن معدي كـرب: لو وردت على مياه العـرب كلها ما باليت بأحـد إلا أن يكون عامر بن الطفيل، أو عتيبة ابن الحارث، أو عنترة ابن شداد، أو السليك ابن السلكة[1].

وبالإضافـة إلى شجاعته النـادرة، وحسبه الكريم، فهو شاعر مُجيد:

وإني وإن كنت ابـن فـارس عامـر

وسـيـدهـا المشـهـور في كـل مـوكـب

(١) بلـوغ الأرب (٢/ ١٢٧). وعتيبـة بـن الحارث بـن شهاب التميمي فارس بني يربوع في الجاهلية، كان يسمى صياد الفوارس. والسليك بن عمير السعدي التميمي، والسلكة هي أمه، وقد نسب إليها، فغلبت على اسم أبيه، فارس صعلوك، وكان من العدائين، الذين لا تلحقهم الخيل.



فما سودتني عامر عن وراثة
أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنني أحمى حماها وأتقي أذاها
وأرمي من رماها بمنكبي

فلم يتكل على نسبه، بل اعتمد على نفسه، مع أنه من أشرف العرب بيتًا وأكرمهم محتدًا، فهو سليل أسرة عريقة في المجد والزعامة، ضاربة في الشجاعة والشعر والكرم بالنصيب الأوفى، فعمه أبو البراء عامر بن مالك[1] ملاعب الأسنة، وابن عمه لبيد ابن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شاعر المعلقات المعروف. أما أبوه الطفيل بن مالك فهو سيد عامر وفارسها المشهور.

بزغ فجر الإسلام من مكة، وبدأ ضوؤه يتخلل جزيرة العرب، ولم تكن العرب لتقبل هذا الدين الجديد الذي يسعى لتغيير كافة نظم الحياة، ولكنها أوكلت مهمة التصدي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل مكة، فهم سادة البيت، وأرباب التجارة في جزيرة العرب كلها. وطفق العرب يقولون: هم أهله وقد حاربوه، فإن ظفر بهم فهو نبي، وإلا فقد كفيتموه.

---

(١) أبو براء عامر بن مالك سيد بني عامر بن صعصعة، وأحد فرسانهم المعدودين، كان مضرب المثل في الشجاعة، حتى سمي بملاعب الأسنة. عُمِّر طويلاً، حتى أدرك الإسلام، ووفد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسلم.

تتابعت الأحداث عجلى، وعامر بن الطفيل منهمك في غزواته وحروبه مع القبائل الأخرى من يوم الرقم[1] إلى يوم فيف الريح[2].

وبعد صلح الحديبية استشعر سادة العرب، ومنهم عامر بن الطفيل: أن نجم الاسلام قد بدأ يعلو مهددًا بتقويض صروح الجاهلية، فالدين الجديد ليس عقيدة فقط، بل هو تغيير شامل لنظام الحياة بمفهومها الواسع. حتى معايير السيادة والفخر والكرم لم تعد بالأحساب والأنساب، بل أصبح الناس سواسية، لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

ما إن أدرك عامر هذا الأمر حتى قرر أن يتفاوض مع قائد هذا الدين الجديد في يثرب. تأهب للسفر، وأعد للأمر عدته، وقرر أن يسلم على أن يكون له الأمر من بعد محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن! لماذا أصر على أن يصحبه أربد بن قيس[3]، وهو فاتك من فتاك العرب المشهورين؟ لا بد أن وراء الأكمة ما وراءها.

---

(١) الرقم: يوم انتصرت فيه غطفان على عامر، وكان عامر بن الطفيل شابًّا، وله ذكر في ذلك اليوم.

(٢) فيف الريح: يوم عظيم، جرى بين قبيلة عامر والحارث بن كعب وأحلافها، وكان الصبر والشرف فيه لعامر. وقد وقع هذا اليوم في السنة الخامسة بعد الهجرة تقريبًا.

(٣) أربد بن قيس العامري أحد فتاك العرب وفرسانها المشهورون، أراد أن يفتك بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعصمه الله، ورجع أربد إلى قومه، فنزلت عليه صاعقة فأحرقته. رثاه لبيد بن ربيعة، وكان أخاه لأمه.

خرج الركب من ضرية[١] تخب بهم المطي، ميممًا شطر الغرب إلى يثرب، وفي نفس عامر شيء من الانقباض! ماذا لو أجاب محمد شرطه، ووافق على أن يكون له الأمر من بعده؟ أيغدو تابعًا له بعد أن كان متبوعًا بشكل مطلق؟ كيف وقد أقسم: ألا يموت حتى تتبعه العرب قاطبة، ثم ها هو يغدو تابعًا لفتى من قريش؟ تساؤلات ملحة كادت أن تثنيه عن عزمه، وتعود به أدراجه، ولما يبلغ الركب جبل رحرحان[٢] بعد.

تشجع قليلًا حين خطر له أن هذا الشرط قد يضمن له سرعة نجاح مشروعه في توحيد العرب تحت رايته، وعلى كل حال إن وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، فأربد حاضر موجود!

أناخ الركب على مرحلة من المدينة، وبات عامر يعد الخطة، الخيارات واضحة ومحددة، وليس ثمت أنصاف حلول، انفرد بأربد، ثم قال له: إن محمدًا لا يحرسه حارس، ولا يحجبه حاجب، وسأفاوضه على أن يكون لي الأمر من بعده، فإن أجاب فبها ونعمت، وإن أبى فأته من خلفه، ثم اعلهُ بالسيف، وأنا أشغل عنك وجهه. هز أربد رأسه مبديًا موافقته، ولم ينبس ببنت شفه.

---

(١) ضرية: قرية شهيرة ضاربة في أعماق التاريخ، سميت بضرية بنت ربيعة بن نزار، وهي منزل من أشهر منازل طريق الحج البصري. اتخذها كليب وائل حمى لرعي إبله، ثم جعلها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حمى لإبل الصدقة. واليوم هي إحدى محافظات منطقة القصيم.

(٢) جبل رحرحان: جبل شهير يقع قريبًا من الربذة على بعد ١٥٠ كلم شرق المدينة.



دخل عامر المدينة وقد تغير فيها كل شيء منذ أن زارها آخر مرة قبل عشر سنين. أين حانات يهود بني قريظة، أم أين مزارع بني النضير، بل أين بنو قينقاع صاغة الذهب وتجاره في الجزيرة كلها. لقد تشتت القوم، فلا أنيس ولا مخبر.

لم يتغير بناء المدينة كثيرًا فالحصون هي الحصون، والدور هي الدور، لكن تغيرت الوجوه فلم يعد يعرف منها أحد تقريبًا. صاح عامر بالناس على عادة الأعراب: أين محمد؟ دلوني على محمد؟ نظر الناس إليه شزرًا، ثم قالوا بهدوء: في المسجد.

المسجد! ما هذه المفردة الغريبة، التي لم يسمع بها عامر من قبل وهو من عليا هوازن؟ أبلغ بهذا الدين أن يغير حتى لغة الناس؟

أين المسجد؟ قالها بهدوء ينم عن سخرية وغضب خافت. أشار الناس إلى بناء مستطيل، يتوسط الدور، مشيد بالطين، مسقوف بجرائد النخل.

دخل عامر وهو يتصنع الأنفة، وكأنه يريد إخفاء دهشته، وربما وجله حتى عن رفاقه. رأى منظرًا لم يره عند ملوك اليمن، ولم يسمع به حتى عند كسرى وقيصر، الناس أوزاعًا متفرقين، بين قائم وساجد، على حصباء خشنة، حيث لا بسط ولا فرش، فضلًا عن وجود عرش يجلس عليه الملك.

ما سر هذا الرجل؟ بل ما سر هذا الدين، الذي غير يثرب كلها في طرفة عين؟

عامر! صوت هادئ جاء من أقصى المسجد، قطع عليه تأمله، وذكره بشيء من كبريائه، فعلى الأقل ثمت من يعرفه في هذا المكان. التفت نحو صاحب الصوت، وتفرس في ملامحه، فعرف أنه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من لا تخطئه العين: روعةً وهيبةً وجلالًا.

اتجه إليه حتى جلس بين يديه، فبادره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلًا: «هل لك أن تسلم، ولك أعنة الخيل؟»، أي قيادة الجيش. لم يكن هذا العرض مغريًا لعامر، فبادر قائلًا: بل أسلم على أن يكون لي الأمر من بعدك. فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال له: «**بل لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم**»[1].

فجعل عامر يطيل الكلام، وينتظر أربد أن يقوم فيفتك به، وأربد ساكن لا يحير شيئًا. قام عامر مسرعًا، ووقف على باب المسجد صارخًا: والله لأملأن المدينة عليك خيلًا جردًا ورجالًا مردًا، ولأربطن بكل نخلة فرسًا. فلما ولى قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اكفني عامر بن الطفيل، واهد قومه**»[2].

(١) المعجم الكبير، للطبراني (١٠/٣٧٩)، ورواه في الأوسط أيضًا (٩١٢٣).
(٢) المعجم الكبير، للطبراني (١٠/ ٣٨٠).

خــرج عامر مغضبًا، يكاد يتميز من الغيظ على أربد بن قيس، لمــا رأى مــن تأخره وإحجامه عــن قتل محمد، وقال لــه: ويلك! أين مــا كنت أمرتك به؟ والله ما كان علــى ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي علــى نفسي منك، وايم الله لا أخافك بعدها أبدًا فقال أربد: لا تعجل عليَّ، والله ما هممت بضربه، إلا رأيتك بيني وبينه، حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟!

قفــل عامر راجعًا إلى بــلاد قومه كئيبًا، قد انقطــع أمله، ولم تنجــح خطته، فما لبث أن أصابته الحمى، ووهن عن المسير، فأقام عند قبيلة سلول، ولسان حاله يقول:

وقد طوفت بالآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب[1]

بــات ليلــة في بيت امرأة مــن بني سلول، وقــد بلغت به الحمى أشدهــا، فأصبح وقد خرجــت له غدة تحت ذقنــه، فما زالت تكبر حتــى شارف على المــوت بعد ثلاث ليال، فجعــل يتحسسها، ويقول: (غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية)[2].

---

(١) البيت لإمرئ القيس بن حجر من قصيدة قالها آخر حياته.

(٢) هــذه العبــارة خرجت مخرج التأســف والحسرة، وكأنه يقــول: أي ذل بعد هذا؟ فهو لم يقتل في ميدان البطولة، كما يتمنى الفرسان، بل مات حتف أنفه، وقد خرجت غدته من جانب فمه كالبعير، ولم يمت في ديار قومه أو في ضيافة قبيلة لها شرف وذكر، وإنما في ضيافة امرأة من قبيلة سلول، وهي قبيلة تحتقرها العرب!

فما لبث أن مات، فجعلت عامر قبره حمى لا يرعى، ولا يسلكه راكب ولا ماش.

وكان جبار بن سلمى- أحد سادات بني عامر- غائبًا، فلما قدم قال: ما هذه الأنصاب؟ قالوا: حمى على قبر عامر بن الطفيل. قال: ضيقتم على أبي علي، إن أبا علي قد فضل على الناس بثلاث: كان والله لا يضل حتى يضل النجم، ولا يعطش حتى يعطش البعير، ولا يهاب حتى يهاب السيل، وكان والله خير ما يكون حين لا تظن نفس بنفس خيرًا، يا بني عامر اجعلوا حمى قبره ميلًا في ميل[1].



(١) بلوغ الأرب (٢/ ١٢٨).



ب: تحقيق سبب الوفاة

جمع شواهد القصة يدل على أن سبب موت عامر بن الطفيل هو سرطان ليمفاوي، يدعى بيركت ليمفوما (Burkitt lymphoma)، وذلك استنادًا على الدلائل التالية:

١- بيركت ليمفوما هو أسرع السرطانات نموًا على الإطلاق، حيث تتضاعف الخلايا السرطانية كل ٢٤ ساعة. ويخرج غالبًا على شكل ورم في عظم الفك السفلي، ويتضخم بسرعة مذهلة، مما يؤدي إلى خروج جزء من الورم من أحد جانبي الفم، فيما يشبه لهاة البعير. وسرعان ما يقود تضخم الأورام في منطقة الفك وأسفل الحلق إلى إغلاق مجرى التنفس، ومن ثم القضاء على المريض في وقت قصير[١].

ومع صعوبة التأكد من الوقت الذي مر منذ ظهور الأعراض الأولية للمرض على عامر بن الطفيل حتى وفاته، إلا أن المؤكد أن المدة كلها لا تزيد عن الشهر. أما المدة التي مرت بين تضخم الورم حتى كان غدة كغدة البعير وبين وفاته، فهي ثلاثة أيام[٢]. فقد روى ابن كثير عن الأوزاعي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(1) WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissue

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٢٣٥).



مكث يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحًا: «**اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت، وابعث عليه ما يقتله**»[1]، وكان قبل ذلك هو من قتل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بئر معونة.

٢- بيركت ليمفوما هو سرطان ليمفاوي يكثر في مناطق الإصابة بالملاريا، وسمي المرض نسبة للجراح الإيرلندي دنيس بيركت الذي وصفه عام ١٩٥٦ إبان إقامته في أفريقيا الإستوائية، حيث كانت الملاريا تنتشر بشكل وبائي هناك.

وتشير الدلالات التاريخية إلى أن المدينة المنورة كانت من أشهر مواطن حمى الملاريا في الجزيرة، حتى عرفت باسمها (حمى يثرب). وليس هذا مختصًّا بالمدينة فقط، بل كان يشمل أغلب مياه العرب الدائمة، كخيبر، حيث تتوافر الرطوبة والحرارة المناسبة لتكاثر البعوض، الذي ينقل بيوض الملاريا[2].

٣- الحمى عرض عام لأمراض عديدة، ولكن شدتها ونمطها يختلفان من مرض لآخر، فالحمى الشديدة التي تستمر لعدة ساعات، ثم تزول بعد التعرق الكثير، لتعود بعد يومين أو ثلاثة هو نمط مميز للملاريا. وكانت العرب تعرفها، وتسميها:

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٨)، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٢٠).

(٢) مختصر تاريخ الطب العربي (١/ ١٩١- ٢١٥).

(حمى يثرب) ويتقونها بالتعشير[1]. أما الحمى المستمرة بدرجة متوسطة إلى خفيفة، فهي عرض مصاحب لأغلب حالات السرطان الليمفاوي.

وعلى الرغم من أن المصادر المتوافرة بين أيدينا لم تشر إلى نمط الحمى التي أصابت عامرًا قبل وفاته، إلا أن ما يغلب على الظن أنها كانت حمى مرتبطة بالسرطان الليمفاوي، الذي أصابه ولا تشبه حمى يثرب، ولو كانت تماثلها لنقل ذلك إلينا، والله أعلم.



(١) التعشير: خرافة يفعلها بعض العرب، لمنع الإصابة بالحمى، وذلك بأن ينهق كالحمار عشر مرات عند دخول يثرب أو خيبر!

ج: إضاءات طبية[1]

بيركت ليمفوما هو سرطان بالغ الخطورة، سريع الانتشار يصيب الخلايا الليمفاوية البائية (B-Lymphocytes) بسبب طفرة جينية مكتسبة، تؤدي إلى اختلال عمل جين سي ميك (C-MYC) المسؤول عن انقسام نوى الخلايا.

وتحدث هذه الطفرة بسبب ضعف المناعة أو بسبب العدوى المزمنة بطفيل الملاريا أو فيروس ابيشتاين بار (Epstein barr virus)، وفي كثير من الأحيان لا يوجد سبب واضح، يمكن أن يعزى إليه حدوث هذا المرض.

تشخيص المرض:

يتمثل مرض بيركت ليمفوما على هيئة ورم في عظام الوجه والفك السفلي خصوصًا، وقد يصيب الجهاز الهضمي في مناطق مختلفة كالأمعاء والمعدة. وما يلبث هذا الورم أن يتضخم بشكل سريع جدًّا، وقد يصاحبه حرارة وتعرق ليلي ونقصان في الوزن. تحت المجهر يظهر الورم على هيئة السماء المليئة بالنجوم (Starry Sky) ويتكون من خلايا سرطانية متماثلة في الحجم والشكل، تحتوي فجوات دهنية عديدة في السيتوبلازم.

(1) WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissue

ويتـم التأكد مـن صحة تشخيص مرض بيركـت ليفوما عن طريـق علـم الوراثـة الخلوي، حيـث تتميز بوجود اختـلال في عمل جين سـي ميـك (C-MYC) بسبب طفـرة (٨،١٤) أو غيرها من الطفرات.

علاج المرض:

مـع شدة خطـورة المريض إلا أنه يستجيب بشـكل رائع للعلاج الكيمـاوي المكثـف، إذ تبلـغ نسبـة الشفـاء في المراحـل الأولية من المرضـ ٩٠٪ ، ولكنها تقل إلى نسبة ٤٠٪ في المراحل المتقدمة عالية الخطورة.

سبل الوقاية من المرض:

نظـرًا لارتباط أنواع معينة مـن ليمفومة بيركت بمرض نقص المناعة المكتسب (HIV)، فإنه ينبغي تجنب الإصابة بهذا الفيروس عن طريق الابتعاد عن الممارسات الجنسية المحرمة، واتخاذ السبل الوقائية التي تمنع انتشاره عن طريق الدم الملوث بهذا الفيروس.

ومن الضروري كذلك القضاء على طفيل الملاريا وعلاج الالتهابات الفيروسية المزمنة، لأنهما عاملان رئيسان في حدوث المرض.



الفصل السادس

العدسة

أول عذاب أبي لهب



أ- قصة وفاة أبي لهب[1]

مكـة.. وقد قذفـت بساداتهـا وفلـذات أكبادها، نجـدة لأبي سفيـان، وحربًا علـى من قطع شريان تجارتها، وهـدد مكانتها. قد خلت من شيوخها فضلًا عن شبابها وأشرافها، حتى أمية بن خلف- الشيـخ الثقيل- أراد أن يتخلف عـن النفير، فقرب له عقبة بن أبي معيـط بخورًا، وقال لـه: أبا علي، خذ إنما أنت مـن النساء. فحمي الشيخ، وتجهز وخرج.

لكن ما بال عبد العزى بن عبد المطلب (أبي لهب) قاعدًا، وقد خـرج القوم حتـى العباس بن عبد المطلـب. ألم يشتد أبو جهل على جميـع بني هاشـم، ويخرجهم قسرًا للحرب؟ ثـم أليس في خروجه لحرب ابن أخيه مدعاة لخروج غيره من باب أولى؟

علـى كل حال لم يشأ هو أن يخـرج، ولم يطلب منه أحد ذلك، وإنمـا تظاهر بإسقاط دينه عن العاص بن هشام- أخي أبي جهل- مقابل أن يخرج نيابة عنه.

عجبًـا! أيحتاج العاص بن هشام لمثل هذا العرض، حتى يخرج في جيش يقوده أخوه!

(١) للاستزادة انظر: البداية والنهايةج٨ ص١٣٢ وسيرة ابن هشام ج٣ ص ١٩٦-١٩٨.

تململ أبو لهب في بيته الخالي بعد وفاة زوجته أروى- أم جميل- منذ عدة أشهر. انتابته غصة مرة حين نظر إلى قرحته، التي يخفيها تحت إبطه حتى عن أبنائه.

أشاح بوجهه بعيدًا وهو يسترجع ملامح الحارث بن كلدة، وهو يتفحصها ببصره دون أن يلمسها. أحس بشيء من النقمة على هذا الطبيب، الذي يزعم أنه طبيب العرب، ثم لا يحرك ساكنًا لعلاجه، بل حتى الكي رفض أن يقوم به.

ماذا يعني هذا الأمر؟ ثم لماذا طلب منه بلهجة حازمة ألا يخالط أحدًا؟ وهل علم الناس بدائه؟ ماذا عسى أن تقول العرب إن هي علمت؟ تساؤلات مزعجة تدور في رأسه، كلما خلا بنفسه، ونظر إلى قرحته، حتى أصبح يكره العزلة، ويقضي وقته بين تجارته ببطحاء مكة وبين نادي قومه عند الكعبة.

ولكن العزلة أصبحت إجبارية هذه الأيام، بعد أن خرجت التجارة مع العير، وخرج القوم مع النفير، فلم يبق في مكة إلا النساء وبعض العبيد.

خطر له خاطر مرعب، وهو يتذكر عدم مبالاة أبي جهل بخروجه مع الجيش. هل انكشف أمره لأبي جهل؟ هل أخبره الحارث بن كلدة بحقيقة مرضه؟ أم أن هذا القائد الجشع فرح بإسقاط

الديـن عن أخيه، فلم يشتد عليه في الخـروج خشية أن يتراجع عن هذا العرض المغري.

أحسـ بالاختنـاق فخـرج من الـدار ووقف عند بابهـا، وجعل يلتفـت يمنة ويسرة إلى دور بني هاشم وبني عبد المطلب، وقد غدت أبوابها شرعًا للريح، ونهبًا لعوادي الزمن بعد أن كانت قبلة للطارق، ومنتـدى لإدارة شـؤون الحـرم. لم يحتمل هذا المنظـر الذي يقطر حزنًا، ويفيض أسىً، فخرج مسرعًا يحث الخطى نحو الكعبة.

لم يكن المشهد أحسن حالًا، فليس سوى ثمت نساء من الحمس يطفن بالكعبة، ويتمسحن بأنصابها.

اشتد بـه الضجر، فصعد الصفا أمـلًا في نفحة نسيم تذهب عنـه شيئًـا مما يجـد في نفسـه. أحسـ بالوهن يسـري في جسده، فاستقر تحت صخرة ملساء في عرض الجبل. ارتاحت نفسه قليلًا، وتسلـى عن خواطره المزعجة، وهو يتابـع أنفاسه المتلاحقة، وكأنما أنساه نصب جسده هم فؤاده.

الصفا... ما الذي جاء به إلى الصفا؟ ألم ينقلب مجرى حياته رأسًـا على عقب عنـد سفحه، بعد أن قال كلمتـه الشهيرة: (تبا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟). ليأتيه الرد صاعقًا ومؤلمًا: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد:١-٥].

عـادت له المـرارة وهـو يتساءل عن جـدوى قيامـه بمثل هذا الاستعراضـ أمـام قريش كلها. لقد جر عليـه وعلى بني هاشم داءً وبيلًا، بلغ به أن يشارك في حصارهم في الشعب ثلاث سنين.

أيـن موقفه هذا من موقف إخوته الآخرين؟ لقد قام أبو طالب بموقف تمليه عليه عروبته ونخوته، ولم يتخل عن دين آبائه وأجداده.

أمـا العباس فقد أسلم خفية وانصـرف نحو تجارته، متمسكًا بمآثـر قومـه الفاضلـة: كالسقاية والرفادة، ثم ها هـو قد خرج مع قريشـ لبدر، فإن انتصر محمد ألقى بيديه في الإسار فأكرمه ومن عليه، وإن انتصرت قريش شفع فيمن قدر عليه من قومه.

أمـا هـو فقد وقـف موقفًـا لم يقفه عربـي قط: خـذل قومه، وحاصـر نساءهم وأطفالهم، وبالغ في إيذاء جاره القريب، لأجل أن ينال حظوة عند علية القوم، يصلح بها أوَد تجارته.

تـدارك أبو لهب نفسـه اللوامة قبل أن يستفحـل أمرها، ويعلو صوتهـا وزجرها قائلًا: أي هجاء أبلغ ممـا يتلوه محمد فيّ وفي أهل بيتي، ويقول: إنه نـزل عليه من السماء؟ أي دعوة أعظم من دعوته على ابني البكر عتبة، ليفترسه الأسد على مرأى من رفقته ومسمع، فلا ينجده أحد ولا يغيثه مغيث؟

تأججت نار حقده في صدره، وهو يتخيل ابنه بين فكي السبع، وقد عم صراخه الأرجاء، فعض على إبهامه، وقال بصوت خافت: سيشفى غليل صدري عما قريب، ليتني خرجت مع جيش مكة، لأرى مصارع محمد وأصحابه.

رجع أبو لهب ثقيل الخطى إلى بيته، وهو يمني نفسه بخبر سار، يزيل ما لحق به من ألم، فها هي مكة قد حسمت أمرها أخيرًا، وأخرجت جيشها الجرار، الذي تهابه العرب قاطبة. فما عسى أن يفعل محمد وأصحابه، حتى لو خرجت يثرب كلها معه. ما هي إلا جولة واحدة، فإذا هم بين قتيل مجندل، وشريد هارب، وأسير مصفد.

سرعان ما ينتهي هذا الكابوس، وتعود مكة إلى ما كانت عليه قبل خمسة عشر عامًا. لا بد أن ملأ قريش قد حفظوا له صنيعه في حربه المتواصلة مع دين محمد منذ حادثة الصفا إلى اليوم. وربما أعادت له قريش كل مفاخر جده الأعلى قصي بن كلاب.

ألا يستحق ذلك وقد ضحى بسمعته ومبادئه، بل حتى وقاره وهيبته، وهو يتبع محمدًا في أيام منى، ويقول: صابئ ،كذاب.

أحس بشئ من الطاقة يسري في جسده، وهو يسترسل في خيالاته وأمنياته التي أنسته قرحته المتفاقمة.

أقام أبو لهب على هذا الشأن ليالي عدة، لا يعكر مزاجه سوى هينمة النساء برؤيا عاتكة[١] بين الفينة والأخرى. وفي كل مرة يخرج إليهن، ويصرخ في وجوههن، فيصمتن جميعًا، ثم يرجع إلى معتكفه ساخرًا من تعلق النساء بالرؤى والأحلام.

وما لبثت مكة أن طرقها النعي ليلًا بشعر أمية بن أبي الصلت[٢]:

هلا بكيت على الكرام	**بني الكرام أولي الممادح**
كبكُا الحمام على فروع	**الأيك في الغصن النوائح**
من يبكهم يبكي على	**حزن ويصدق كل مادح**
ألا ترون لما أرى	**ولقد يبين لكل لامح**
أن قد تغير بطن مكة	**فهي موحشة الأباطح**

(١) روى ابن هشام أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت أن راكبًا أقبل على بعيره، حتى وقف بأبطح مكة، ثم صرخ بأعلى صوته: انفروا إلى مصارعكم، فاجتمع الناس إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه حتى صعد به جمله ظهر الكعبة! فصرخ انفروا إلى مصارعكم. ثم صعد على جبل أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أرسل صخرة، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفلقت، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا دخلته. كانت هذه الرؤيا قبل قدوم ضمضم الغفاري، يستنجد قريشًا لأبي سفيان بثلاثة أيام.

(٢) أمية بن أبي الصلت الثقفي شاعر جاهلي كان كثير الترحال والسفر، اعتنق الحنيفية، وكان يحدث العرب أن نبيًّا سيبعث فيهم قد شارف زمانه، وكان يرجو أن يكون هو ذلك النبي، فلما جاء الإسلام كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حسدًا، ومات بعد غزوة بدر.

بات أبو لهب ومعه مكـة كلها بشر ليلة، مال إلى تكذيب الخبر بـادي الرأي، فهذا ما لا يصدقه عاقـل! أيُقتل أبو الحكم بن هشام أعـز قريشـ، ويُحز رأسه بيـد ابن أم عبد؟ أم يُقتـل أمية بن خلف سيـد مكة بيد بـلال ابن ربـاح الحبشي المستضعـف؟ هيهات! إنها تخرصات شاعر يبحث عن مناسبة لقصيدته.

ثـم هذا أميـة بن أبـي الصلت أليسـ هو صاحـب الخرافات ومدعـي الكرامات ومعرفة ألسنــة الحيوانات؟ ألم يكـن يزعم أنه سيبعث نبيًّا؟ لا بد أنها نفثة من نفثات شيطانه الكاذب.

تتابعـت الأخبار تترى، وارتفعت أصـوات النوائح في مكة، ولما يبــزغ الفجر بعد. خـرج أبو لهب ومكة في أمر مريــج، وجعل لا يمر ببيت إلا سمع منه رنة وعويلاً.

أهذه رؤيـا عاتكة التي كان يسخر منهـا؟ صخرة أقبلت تهوي مــن أبي قبيس، ثم تفلقت فلم يبق دار من دور مكة، إلا وقد دخلته. استنـد على جـدار حجرة العباس بجـوار زمزم يتفرسـ في وجوه النـاسـ حتـى رأى ابن أخيه أبـا سفيان بن الحـارث، وقد أخذ منه الذعر كل مأخذ، فصاح به: هلمَّ إليَّ، فعندك لعمري الخبر.

اقترب منــه أبو سفيان حتى جلس إليــه، فأحاط بهما الناس، فقــال له أبو لهب: يا ابــن أخي أخبرني كيف أمر النـاسـ؟ أبتلع أبو

سفيـان ريقـه واستعاد شيئًا من هدوئه، ثم قـال: والله ما هو إلا أن التقينا حتى منحناهم أكتافنـا، يقتلون منا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالًا بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، لا يقوم لها شيء.

اسـوّد وجه أبي لهـب، واظلمت الأرض في وجهـه، وسكت الناس وكأنمـا قد انعقـدت ألسنتهم. وفي هـذه اللحظة قفز أبـو رافع مولى العباس بن عبد المطلب من طرف الحجرة وصاح: الله أكبر! تلك والله الملائكـة! فهجم أبو لهـب عليه هجمة شرسة وصفعـه، ثم برك عليه، وقام يضربه ضربًا منكرًا، كأنما ينتقم به من عذاب جسده وروحه.

لم تتمالـك أم الفضل- زوجة العباس بن عبد المطلب- نفسها، وهي ترى هذا المولى المسكين يصارع الموت بين يدي أبي لهب، فقامت إلـى عمود من عمـد البيت فشجت رأسه شجة منكـرة، واستنقذت مولاها من بين يديه، وهي تصيح به: أستضعفته أن غاب عنه سيده؟

انسـل الناس وتركـوا أبا لهب، وقد خارت قـواه ووهن عظمه، فاحتمله بنوه إلى بيته، فلما وصلوا البيت بانت لهم جلية الأمر!

قرحـة منتنـة غائرة قـد رعت جسـد أبيهـم. ياللهـول! إنها «العدسـة» تلك القرحة المشؤومة، التي تشمئـز منها نفوس العرب، وتتشاءم بها.

انسـل الأبناء واحدًا تلو الآخر، حتـى العبيد ما لبثوا أن فهموا الأمر، فخرجوا عنه جميعًا.

أبـو لهب وقد أوصـد عليه البـاب وسدت النوافـذ، فهو رهين محابسه الثلاث: وحدته الكئيبة، ومرضه العضال، ونفسه المنكسرة.

لقـد انتهـى كفاحه المريـر بهزيمة نكـراء أمام المـلأ على يد امرأة. لقـد تركته قريش كلها لوحدته القاتلة، فلم يسأل عنه أحد. تخلى عنه بنوه ومواليه، فلم يطرق بابه أحد.

جيرانــه.. أين جيرانه؟ لمـاذا لم يعده منهم أحـد؟ ولكن! هل يحـق له أن يسأل عنهم، وقد وضـع الشوك على باب خيرهم جوارًا وأقربهم رحمًا.

أخـذ أبو لهب على تلك الحال المزرية سبعة أيام بليالهن يموت شيئًـا فشيئًا. مات مشروعه الذي نافـح عنه طوال حياته، ثم ماتت كرامته، وتبعها جسده عضوًا عضوًا، حتى أنتن وهو حي.

ولو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا[١]

مـات أبو لهب وحيـدًا في بيته، غريبًا بين ظهـراني قومه، ولم يغن عنه ماله وما كسب. وأدهى من ذلك وأمرّ أن بقيت جثته ثلاثة أيام لم يقترب منها أحد.

(١) البيت لامرئ القيس بن حجر، انظر: الشعر والشعراء (١/ ١٢٠).



وكما ملأ مكة حقدًا وبغضًا وهو حي، ملأت جيفته المكان رائحة ونتنًا وهو ميت.

لم يحمل على الأكتاف حمل الأحبة، ولم يدفن في جوف الأرض دفن الكرام، وإنما جعلوا ينخزونه بالعصي حتى أسندوه إلى حائط، ثم رجموه بالحجارة حتى توارت جيفته عن الأنظار، ومن يهن اللّه فما له من مكرم، وما ربك بظلام للعبيد.



ب: تحقيق سبب الوفاة

يغلب على الظن أن القرحة التي أصابت أبا لهب هي نوع من سرطان الجلد الليمفاوي، يدعى الورم الحبيبي الفطري (Mycosis Fungoids)، وهي التي كانت تسميها العرب العدسة. وفي لسان العرب: العدسة: بثرة قاتلة، تخرج كالطاعون، وقلما يسلم منها صاحبها، وفي حديث أبي رافع: أن أبا لهب رماه الله بالعدسة، هي بثرة تشبه العدسة، تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالبًا[١].

والورم الحبيبي الفطري هو أكثر الأورام الجلدية الليمفاوية شيوعًا، ويظهر على أشكال متنوعة، تصيب الجلد في منطقة الجذع غالبًا. يبدأ هذا المرض على شكل آفات جلدية مسطحة، ذات لون زهري داكن. ولهذا السبب سمته العرب بالعدسة، تشبيهًا له بحبة العدس.

وما يلبث أن يتحول إلى كتل وأورام، تتقرح باستمرار، حيث تكون عرضة للعدوى الانتهازية بسبب البكتيريا أو الفطريات. وفي مراحله المتأخرة يتحول إلى مرض عام يؤدي إلى احمرار في الجلد، وينتشر في الغدد الليمفاوية والدم، حيث يموت المريض بعدها بوقت قصير في حال عدم العلاج.

---

(١) لسان العرب (٦/ ١٣٢)، مادة عدس.

وهذا المرض من الأمراض التي اكتسبت سمعة سيئة لاعتقاد الناس أنه معد، ونظرًا لشكل التقرحات التي كانت تبعث الاشمئزاز في نفوسهم، خصوصًا إذا اقترنت بعدوى انتهازيه تغير من رائحتها. ولهذا السبب يميل أغلب المرضى إلى إخفاء المرض عن الناس، حتى يستفحل الداء في مراحله الأخيرة.

ويبدو من سياق القصة: أن أبا لهب كان يعاني من المرض قبل غزوة بدر، ولذا لم يخرج في النفير برغم الدواعي الملحة لخروجه، فهو أشد قريش عداوة وحقدًا على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم هو من كبار تجار مكة، وقد قطع المسلمون طريق التجارة إلى الشام منذ سنة، وها هم يعترضون طريق القافلة الوحيدة، التي رجعت من الشام بربح وفير. ومما يؤكد ذلك أن الدين الذي أسقطه أبو لهب كان أربعة آلاف درهم، وهو مبلغ كبير لا يسقطه تاجر مثل أبي لهب، إلا إذا كان الظرف حرجًا. أضيف إلى ذلك أن المدين كان من علية القوم، فهو أخو أبي جهل بن هشام سيد مكة وزعيمها المطاع، ومن ثَم فخروجه في الجيش أمر بدهي، ومسألة محسومة، وإنما أراد أبو لهب بهذه التمثيلية صرف النظر عن سبب قعوده الحقيقي. أما سبب موته المباشر بعد بدر فهو استفحال الداء، مع ما تعرض له من إهمال متعمد من أبنائه، ومواليه خشية العدوى، إضافة إلى ما كان يعانيه من ألم نفسي بئيس.



ج : إضاءات طبية[1]

الورم الحبيبي الفطـري هو سرطان ليمفاوي، يصيب الخلايا الليمفاويـة التائيـة (T–Lymphocytes) ، التي تستقر تحت الجلد. وهو أكثر سرطانات الجلد الليمفاوية شيوعًا ، إذ يمثل ما نسبته ٥٠٪ مـن هذه الأمراض. وليس ثمت علاقـة علمية مثبتة بين هذا المرض والإصابة بالفطريات، وهو لا يعدي، كما كان الناس يعتقدون قديمًا.

تشخيص المرض:

يبـدأ المرض على شكل آفات جلديـة سطحية ذات لون زهري داكن، وتكون بيضاوية الشكل أو مدورة. تتحول هذه الآفات إلى كتل مرتفعة قليلًا عن الجلد ، وقد تؤدي إلى حدوث التجاعيد ، وفي نهاية المطاف تتحول إلى قرح غائرة وأورام في العقد الليمفاوية.

يتـم التأكد من التشخيص عن طريـق أخذ خزعة من الجلد ، حيـث ترى الخلايـا الليمفاويـة التائية، وقد غـزت طبقات الجلد ، وانتشرت بين خلاياه.

(1) WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissue

علاج المرض:

تختلـف نوعيـة العلاج حسـب مرحلـة المرض، ففـي المرحلة الجلدية يكفي العلاج الموضعي بالإشعاع أو بالأشعة فوق البنفسجية: أما في المراحل المتقدمة فلابد من العلاج الكيماوي المكثف.

الاحتياطات اللازمة:

قد تتشابه أعراض هذا المرض في مراحله الأولية مع الصدفية أو مـع بعض أنواع الإكزيما، ولـذا يجب الاحتياط عند تشخيص أي مريض لديه إكزيما غير نموذجية، أو حكة مستمرة غير مستجيبة للستيرويدات الموضعية.



د: ما سبب السرطان؟

يشكل هذا التساؤل أمرًا ملحًّا عند عامة الناس، وعند المتخصصين على حد سواء. فغالبًا ما يبحث الناس عن سبب وحيد يُمَكنهم من إلقاء اللائمة عليه: كأكل معين، أو تصرف محدد، بينما يلح المتخصصون على البحث عن الآلية التي تتحول من خلالها خلايا جسم الإنسان من خلايا سليمة، تساهم في بناء جسم الإنسان، وتعويض ما نقص من أنسجته إلى خلايا تنمو بشكل ذاتي، خارج عن سيطرة الآليات الفسيولوجية للجسم.

والحق أن السرطان لا يتسبب فيه عامل واحد فقط، بل هو من الأمراض التي يطلق عليها عديدة الأسباب (Multi-Factorial) بحيث تتظافر هذه الأسباب جميعًا بنسبب متفاوتة، وتؤدي إلى حدوث طفرة جينية في الخلايا الأولية المسؤولة عن إنتاج الخلايا الوظيفية.

وهذه الأسباب تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

قسم لا يمكن التحكم به: كالاستعداد الوراثي مثلًا، وهو عامل مهم في نشوء بعض السرطانات، وإن كان لا يكفي وحده، بل لا بد من تظافر عوامل أخرى معه. يتمثل بالاستعداد الوراثي في وراثة

بعض الجينات التي تزيد من نسبة السرطان، أو وجود خلل في بعض الجينات التي تحمي من السرطان.

ومن أهم تلك الجينات على الإطلاق هو البروتين ب-٥٣ (P-53)، الذي يلعب دورًا حاسمًا في كبح نمو الأورام، ومن ثم الوقاية من السرطان. ويمكن معرفة وجود الاستعداد الوراثي للإصابة بالسرطان عن طريق ملاحظة إصابة عدد من الأقارب بنوع محدد من السرطان: كسرطان الثدي مثلًا أو بعض أنواع الليمفوما، أو عن طريق إجراء بعض الفحوصات الدقيقة، التي تختبر أداء بعض تلك الجينات. وهنا تكمن أهمية الكشف المبكر والمتابعة الدورية خصوصًا في الأفراد الذين لديهم أقارب من الدرجة الأولى قد أصيبوا بمثل هذه الأنواع من السرطانات.

أما القسم الآخر من المسببات فهو ما يمكن التحكم به، ومن ثم اجتنابه والابتعاد عنه. وتُعدُّ العوامل البيئية المسببة للطفرات الجينية من أهم هذه الأسباب. ويأتي في مقدمتها التعرض للإشعاع، سواء أكان من مخلفات الحرب أو كان ناتجًا من الاستخدام السلمي للمواد المشعة.

ويدخل تحت هذه الأسباب بعض التصرفات الفردية: كالتدخين مثلًا، فهو أحد العوامل المؤكدة لحدوث سرطانات الرئة

والمثانــة، خصوصًا عند اقترانه مع استعداد وراثي. وبالإضافة إلى ذلــك قد يؤدي استخــدام بعض الأدويــة إلى زيادة خطــر الإصابة بالسرطان على المدى البعيد والمتوسط.

ومما يجدر بالذكر هنا، أن بعض الخلطات الشعبية قد تحتوي علــى نسب عالية من المعــادن الثقيلة كالرصاصــ، مما يزيد خطر الإصابة بالسرطان أيضًا. وثمت قسم ثالث من مسببات السرطان، يمكن علاجه بعد وقوعه: كبعض أنواع العدوى الفيروسية والبكتيرية.

وهــذه الحقيقــة، حقيقة أن نشــوء السرطان يحتــاج إلى عدة عوامــل تتظافر معًا، تجيب على اعتراض طالما أثاره كثير من عامة النــاس عند الحديــث عن أضرار التدخين. وسبــب هذا الاعتراض أنهــم يــرون كثــيرًا مــن المدخنــين يعمــرون طويــلًا، ولا يصيبهم السرطــان. والإجابــة علــى هــذا الاعتراضــ مفادهــا أن من يقوم بالتدخــين يكون قد أضاف عاملًا مؤكدًا للإصابة بالسرطان، ولكن الإصابة بحد ذاتها تحتاج إلى عوامل مساعدة أخرى.

والخطر المحدق يكمن في أن بعض هذه العوامل لا يمكن التنبؤ بوجــوده أصــلًا، فيظل كامنًا ينتظــر تكامل العوامــل الأخرى. ولك أن تتخيــل كيف ترتفع نسبــة الإصابة عند مدخن لديه عامل جيني مسبب للسرطان!

بعض الأدوية والعلاجات الكيماوية
وبعض الخلطات والعلاجات الشعبية

العدوى الفيروسية والبكتيرية
فيروس نقص المناعة (HIV)
وفيروس ابستين (EBV)
جرثومة المعدة (H. Pylori) فيروسات الكبد

عوامل بيئية مسببة للطفرات الجينية:
التعرض لأي عامل من عوامل الإشعاع أو المبيدات الحشرية والتدخين

استعداد وراثي:
وراثة بعض الجينات التي تزيد من نسبة السرطان أو خلل في بعض الجينات التي تحمي من السرطان

آلية غامضة

طفرة جينية في الخلايا الجذعية تؤدي إلى زيادة تكاثر الخلايا الأولية وعدم تحورها إلى خلايا ناضجة، ومن ثم تراكم الخلايا غير الوظيفية. وقد تكتسب هذه الخلايا قدرة غير طبيعية على البقاء، فتساهم في زيادة التراكم

شرح مبسط عن آلية حدوث السرطان: (هذه الآلية تشكل قاعدة عامة، قد يشذ عنها بعض الأنواع)

الفصل السابع

المخبل السعدي

يرى الشخص كالشخصين وهو قريب

أ: قصة المخبل السعدي[1]

اشتدت قبضته على العصا وأمسكها بأنامله العشر، وهو ينوء للنهوض، لكي يخرج من بيتــه إلى منهل الماء، فقــد سئم الوحدة، وكاد أن يقتله الضجر.

ومع أن بواعث الخروج قوية ودواعيه ملحة، إلا أنه تردد كثيرًا قبل أن يهــم بالمحاولة، فمئة عام ونيف قد أثقلت كاهله، وأرخت مفاصله، ونالــت مــن همته وعزمــه. وضع رأسه علــى ظهر يديــه، واستند على العصا، ثم نهض منحنيًا كقوس بالية، اشتد وترها فعطف سِيتَها[2].

خرج ربيع السعدي من بيته يدب دبيبًا، وهو يهمهم بأبيات صنوه الآخر لبيد بن ربيعة، الذي قاسمه الشعر، وشاكله في طول العمر:

فــمــاذا ورائـــي إن تــراخــت منيتي
لــزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخــبر أخبــار الـقــرون الـتي مضت
أدب كـــأني كـلـمـا قــمــت راكــع

---

(١) للاستــزادة: انظــر: عشرة شعــراء مقلــون (٥٠-٧٨)، والشعر والشعــراء (١/ ٤٢٠)، والأغاني (١٢/ ٣٨-٤٢).

(٢) سيــة القوســ: هــي طرفها المعــوج، وللقوســ سيتــان، وإذا اشتد الوتر عطــف السيتين، فأصبحت القوس منحنية.

تحامـل على نفسه حتـى بلغ بطن الوادي ثـم استند إلى أصل شجرة هناك وأخذ يقلب طرفه يمنة ويسرة في أرجاء وادي الكُلاب الأفيّـح[١]. رفـع رأسه قليلًا لينظر إلى جبل ثهـلان، وقد سد الأفق وهو يستعد لابتلاع قرص الشمس التي شارفت على المغيب.

ذرفـت عينـاه، وكأنما ذكره غيـاب الشمـس واستتارها خلف ذروة مـن ذرى ثهـلان بغيابٍ مـن نوع آخر. إنه غيـاب ابنه الوحيد شيبـان الـذي رزق به بعد أن جـاوز السبعين، ثم هـا هو ينتدب في جيش سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفتح العراق.

لقـد أكل هـذا الغياب كبـده، وأبقى له عبرة لا ترقـأ، وغصة لا تقلـع، حتى لقـد تلفت نفسه في إثـر كل قافلة، تئـوب من العراق أو تخـرج إليـه. وفي كل مرة يخيـب أمله، فيرجع حسـيرًا إلى بيته، ويقسـم على نفسـه أن تقطع رجاءها، وأن تصـرم حبل أملها، لكي تستريح من إشفاقها وتطلعها.

ولكنه مـا أن يسمع رغاء الإبل، وقد حطـت رحالها على منهل الشّعْـراء[٢] حتى يتسلل الأمل إلى نفسه من جديد، كما يتخلل مطر

---

(١) وادي الكلاب: واد يسلك شرقي ثهلان، يسمى حاليًا وادي الشعراء، وقع فيه يومان من أيام العرب في الجاهلية.

(٢) بئـر ماء قديم يقع شرقي ثهلان، قامت حوله قريـة الشعراء، وهي مركز يتبع لمحافظة الدوادمي بمنطقة الرياض حاليًا.

الصيـف عروق شجرة لم تمطر في شتاء أو ربيع، فيبادر إلى المنهل، وقد بعث الأمل عظامه، وسرى في مفاصله.

ولكـن ما يبعـث على الأسى أنـه كثيرًا ما يُعتقـل مكانه، حالما يخيـب رجـاؤه فيعجز عن الرجـوع إلى بيته، وربما عـثر في طريقه فوقع في قلب شجرة.

لم يشأ أن يسترسل في هذا الخيال الحزين، فواصل المسير في بطـن وادي الكُلاب، حتى وقف عند طلحـة خضراء قد حفر السيل عـن عروقها المتشعبة. لقد وقـف بإرادته هذه المرة، وكأنما يريد أن يستحـث ذاكرته القديمة على تذكر يوم من أيام البطولة والشرف، جرت أحداثه في جنبات وادي الكُلاب[1]، حيث تقف قدماه.

لا يزال يذكر كيف عم الـروع أرجاء الوادي عندما سمع قومه أن ملك نجران الحارث بن عبد يغوث قد أقبل عليهم بجيش عظيم، يريد أن يستأصـل شأفتهم، ويبيد خضراءهم. لم يلبثوا كثيرًا حتى سالـت عليهم جنبات الوادي بالخيل والرجال، واختلط وقع سنابك الخيل مع قعقعة السلاح. انبرى لهم أبطال قومه على قلتهم، وكثرة الجراح فيهم، ولسان حالهم:

(١) يـوم الـكلاب الثاني: يوم مـن أعظم أيام العرب وقـع بين الحارث بن كعـب وأحلافها وبـين قبيلة تميم، وحدث بعدما طمعت القبائـل في تميم بعد أن أوقع بهم كسرى في يوم الصفقة، فجمع لهم بنو الحارث بن كعب ثمانية آلاف مقاتل، وساروا إليهم من نواحي نجـران، فهـزم جمعهم شر هزيمة، وأسر قائدهم الحارث بـن عبد يغوث، ثم قتل بدم النعمان بن مالك سيد الرباب. انظر: أيام العرب في الجاهلية (ص ١٠٠).

ولو كان جمعًا مثلنا لم نبالهم ولكن أتتنا أسرة ذات مفخر[1]

لقـد تداخلت عليـه أصوات المعركـة، فلم يعد يميـز بينها إلا صـوت قيس بن عاصم[2] سيـد بني سعد وهو ينـادي: يا لتميم، يا لسعد! حتى انجلت المعركـة عن ملحمة من ملاحم العرب الكبرى، وانتصرت البطولة المدافعة عن نفسها على الكثرة الغازية.

أحسـ بنشوة النصر، وهو يتذكـر مشهد الملك الأسير، يطاف به بين بيوتات بني سعد والرِباب، ليحكم فيه ذوو النهى. كان المشهد في غايـة الغرابـة، ليس لأن الأسـير ملك، وإنما لأنـه شاعر! خاف القوم من هجائه، فربطوا لسانه، وألجموا فمه.

يـا لمفارقـة القـدر! أيهان لأنه ملـك، ويخاف منه لأنـه شاعر؟ ولكـن! أليس هذا هو شـأن الدنيا منذ بدأ الخلق؟ ما أن تنقلب ظهرًا على عقب، حتى تسلب المرء جميع ما تلبس به من صفات خارجة عنه مـن جاه أو مـال أو ملك، ولا يبقى له سوى صفاتـه اللازمة في نفسه من علم أو شعر أو حكمة، لتكون مصدر قوته الوحيد في زمن محنته.

(١) البيت لعامر بن الطفيل من قصيدة له، قالها يوم فيف الريح. الشعر والشعراء (١/ ٢٣٥).

(٢) قيس بن عاصم المنقري: سيد تميم في الجاهلية والإسلام، اشتهر بالشجاعة والحلم، وكان قائد تميم يوم الكلاب الثاني، وفد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة تسع، وقال فيه: هذا سيد أهل الوبر. مات في خلافة عمر، فرثاه عبدة الطبيب:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

وما كان قيـس هلكه هلك واحد ولكنـه بنيان قـوم تهدمـا

لم يستطع ربيع إخفاء تعاطفه مع الأسير الشاعر، عندما أشار إلى القوم بأن يطلقوا لسانه لكي ينوح على نفسه قبل أن يقتل، وربما أدركه رحم الأدب، الذي يجمع بينه وبين الأسير، فكلاهما شاعر مُجيد:

وقرابة الآداب تقصر دونها

عند الأديب قرابة الأنساب

أطلق القوم لسانه وأقبلوا يلومونه على عدوانه عليهم، فأنشد قصيدته الخالدة:

أَلاَ لا تَلُومَانِي كَفى اللَّوْمَ ما بِيَا

فما لَكُما في اللَّوْم خَيرٌ ولا لِيَا

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ المَلاَمَةَ نَفْعُها

قليلٌ، وما لَوْمِي أَخِي مِن شِمَالِيَا

فَيَا راكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ

نَدامَايَ مِن نَجْرَانَ أَنْ لا تَلاَقِيَا

أَحَقًّا عِبَادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ سامِعًا

نَشِيدَ الرُّعَاءِ المُعْزِبِينَ المَتَالِيَا

أَقُـولُ وقـد شَـدُّوا لـساني بِـنِـسْـعَـةٍ[1]

أَمَـعْـشَـرَ تَـيْـمٍ أَطْـلِـقُـوا عـن لِـسَـانِـيَـا

أَمَـعْـشَـرَ تَـيْـمٍ قَـدْ مَـلَـكْـتُـهُـمْ فَـأَسْـجِـحُـوا

فـإِنَّ أَخـاكـمْ لـم يَـكُـنْ مِـن بَـوَائِـيَـا[2]

فـإِنْ تَـقْـتُـلُـونِـي تَـقْـتُـلُـوا بِـيَ سَـيِّـدا

وإِنْ تُـطْـلِـقُـونِـي تَـحْـرُبُـونِـي بِـمَـالِـيَـا

كـأَنِّـيَ لـم أَرْكَـبْ جَـوَادًا ولـم أَقُـلْ

لِـخَـيْـلِـيَ كُـرِّي نَـفِّـسِـي عـن رِجَـالِـيَـا

فلما فرغ منها قطعوا له عرق الأكحل، وتركوه ينزف حتى مات.

مـرت هذه الأحداث تترى على خيـال ربيع السعدي، وقد طال به الوقوف في المكان حتى خشي أن يدركه الليل، ولما يصل إلى منهل الماء بعد. أسرع في مشيه قليلًا ، وقد فاءت إليه نفسه، واستعاد شيئًا من ثقته، فلا يزال شاعر بني سعد في الجاهلية والإسلام.

جـاوز بطن الوادي، ومضى يحث خطاه نحو الماء، فزلت قدمه وهوى إلى الأرض. كان الموقف محرجًا ومؤلمًا في الوقت ذاته، ولكنه

(١) النسعة: سير عريض، يصنع من الجلد يشد به.

(٢) أسجحوا: لينوا ويسروا، البواء: النظير والمكافئ.

لم يعبأ بالألم بقدر خوفه من ضياع عصاه، التي لا غنى له عنها في جميع أحواله.

استوى جالسًا ومد يديه يمنة ويسرة رجاء أن يظفر بها، فيكفي نفسه مؤونة سؤال المارّة. مرت الثواني وكأنها ساعات وهو يتحسس ما حوله دون جدوى، فاستند على يديه، واحتمل على ركبتيه، وأخذ يحبو ورأسه يكاد يمس الأرض ضعفًا وخجلًا.

أبا شيبان! صوت رقيق ويد أرق نهضت به في حنان وعطف. أمسكت بيده وأصلحت من شأنه، ثم أخذته إلى بيتها القريب وأكرمت ضيافته وهو مطرق ساكت. فلما أراد النهوض سألها: من تكونين؟ فقالت: أنا بعض من ذكرت في شعرك. فقال: ويحك ومن أنتِ؟ فقالت: خليدة بنت بدر.

خليدة؟ يا لهول المفاجأة! ويا لعجائب الصدف! خليدة! مثال الحب والغزل، ورمز البغض والهجاء في شخص واحد. إنها الحلم الجميل الذي أشعل في روحه جذوة العشق في خريف العمر، ثم ما لبث أن تحول إلى خيبة مريرة، لا تزال تذكره بأن شبابه قد ولى إلى غير رجعة.

لقد لقيها قبل ثلاثين سنة، فرمت قلبه بدلٍ ناعم ووجه مليح، فهام بها أيما هيام. خطبها فردت خطبته، وسخرت من تصابيه وتجاهله لسنه.

لم يتحمــل رد خطبته فضلًا عن السخرية منه، فهجاها هجاءً مقذعًــا، ونــال من أخيها الزبرقــان بن بــدر[1]. ولم يقف عند هذا الحد، بل تعرض لعرضهــا، ولج في الشتم والهجاء حتى ظن الناس أن في عقله خبلًا، فلقبوه «بالمخبل»، فأصبح علمًا عليه.

أطــرق خجلًا، وهــو يتذكر صنيعها الجميــل معه قبل لحظات على الرغم من هجائه المقذع لها طوال ثلاثين سنة. نهض من بيتها وهو يعتذر، ويقول:

لقد ضل حلمي في خليدة ضلة سأعتــب ربــي بعدهــا وأتــوب

وأشهــد والمستغفــر الله أننــي كذبــت عليها والهجــاء كذوب

وصل البئر وقد كثر ورّادُه، وتزاحم عليه الرِعاء، وتبادره رواد القوافــل مــن كل حدب وصوب. تبــين له من لغاتهــم المختلفة أنهم أضاميم من قبائل شتى، قد جمعهم منهل ماء واحد.

يا لروعــة الإسلام وما أعظم أثره علــى الناس،كيف ألف بين القلــوب المتنافــرة، ونظم القبائل المتناحرة في نظــام واحد. لم يدُر بخُلــد عربــي قط قبل عشــر سنــين أن يجتمع التميمي مــع البكري أو الحارثــي مــع العامــري على مــورد واحــد دون أن تنشب الحرب

(١) الزبرقــان بن بدر السعدي كان سيــدًا في الجاهلية، عظيم القدر في الإسلام. وفد على رســول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وفــد بني تميم، فأسلم وحســن إسلامه. كان يلقب بقمر نجد لجماله، وله قصة مشهورة مع الحطيئة.

العضـال، واليوم تزدحم على الشّعْراء عدة قبائل، بل تنتظم العرب كلها في جيش واحد يقاتل الفرس والروم.

في هذا المشهـد المفعم بالحركة لمح المخبل فتىً يمتاح الماء، وقد انحسر الـرداء عن منكبيه، وهو يرفع الغـرب كأنما هي دلو صغيرة، ويفرغهـا في حوض إبلـه العطاشـ[1]. راق له المنظر كثـيرًا، وكأنما ذكـره بابنه شيبان، فأمهله حتى سقى إبله ثم ناداه. أقبل الفتى يتهلل وجهه، وقبـل رأس الشيخ. فقال له المخبل: من أي العرب أنت؟ أجاب الفتـى بشئ من الزهو: من بنـي هلال بن عامر، وأنتم أخوالي يا بني سعد. فقال له المخبل: ما صنع صاحبكم حميد بن ثور الهلالي[2]؟ رد الفتى: عهدي به يرعى إبله بين ضرية والنير[3]. ضرب المخبل الأرض بعصاه، ثم قال: أنا والله أولى منه بأبياته التي سبق الشعراء إليها:

أرى بصـري قـد رابنـي بعـد صحة
وحسـبـك داء أن تـصـح وتـسـقـمـا

ولـن يلبـث الـعـصـران: يـوم وليـلـة
إذا اخـتـلـفـا أن يـدركـا مـاتـيـمـمـا

---

(١) يمتاح: يغترف الماء من البئر، الغرب: الدلو العظيمة.

(٢) شاعـر مخضـرم وفد على النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد حنين وأسلـم، عده الأصمعـي من فصحاء الشعراء، وهو مقدم في شعر الوصف والغزل والحكمة. توفي في خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) النير: جبل شهير يتوسط عالية نجد يقع إلى الجنوب من ضرية به العديد من آبار المياه.



استرسـل الشيخ: لقد أنكرت بصري بعد أن كان أقوى ما ترك الزمـن لي، ومـا أرى هذا إلا بريد حِمامـي، ولم يبق لي من أمنيات الحيـاة سوى أن أرى ولدي شيبان قبل أن أموت ، فهل تحفظ الشعر يابنـي؟ رد الفتـى بحماسـ ولهفة: أنا والله خير مـن يحفظه وخير مـن ينشـده، وحسبك بي إذا قمت في نادي القـوم، ورفعت عقيرتي بالشعر، وغنيت غناء يصبي الشيخ، ويبكي العجوز على صباها.

التفت المخبل إلى الأفق البعيد، ثم قال: فاحفظ عني إذا:

أَيُـهْـلِـكُـنِـي شَـيْـبَـانُ فِي كُـلِّ لَـيْـلَـةٍ
لِـقَـلْـبِـيَ مِـنْ خَـوْفِ الـفِـرَاقِ وَجِـيـبُ

وَيُـخْـبِـرُنِي شَـيْـبَـانُ أَنْ لَمْ يَـعُـقَّـنِـي
تَـعُـقُّ إِذَا فَـارَقْـتَـنِـي وَتَـحُـوبُ

فَـإِن يَـكُ غُـصني أَصبَـحَ الـيَـومَ ذاوِيًـا
وَغُـصـنُـكَ مِـن مـاءِ الـشَّـبـابِ رَطـيـبُ

فَـإِنّي حَـنَـت ظَـهـري خُـطـوبٌ تَـتـابَـعَـت
فَـمَـشـي ضَـعـيـفٌ فِي الـرِّجـالِ دَبـيـبُ

وَمـا لِـلـعِـظـامِ الـراجِـفـاتِ مِـنَ الـبِـلى
دَواءٌ وَمـا لِـلـرُكـبَـتَـيـنِ طَـبـيـبُ

إِذا قـالَ صَـحبي يـا رَبـيـعُ أَلا تَـرى
أَرى الشَخصَ كَالشَخصَينِ وَهوَ قَريبُ

وإنّ امــرأً قـد عـاش تـسـعين حجة
إلـــى مـنـهـلٍ مــن وِرده لـقـريـبُ

إذا ذهــب الـقِـرن الـذي أنـت فيهمُ
وخـلّـفـتَ في قِـــرنٍ فـأنـت غـريـبُ

انطلـق الفتـى يغنيهـا بلحـن حزيـن علـى وقع خطـى الشيخ المتتابعة، الذي مضى عجلًا يحاذر أن يحول الليل بينه وبين منزله.

سرى الصـوت في نوادي العرب قبل أن يصل المخبل إلى بيته، وكأنما تكفلت بإيصاله سحابة الغروب الحمراء، التي كانت أول من سمع الصوت.

بلـغ هذا الصوت مسامع عمر بـن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في المدينة فبكـى حتى بـل رداءه، وأنفـذ رسوله علـى الفور إلى سعـد بن أبي وقاص يأمره برد شيبان إلى أبيه، ويعزم عليه ألا يفارق أباه أبدًا.

يا لها من رسالة مفادها أن الإسلام دين بر ورحمة، وإلا فمن يعبأ بشيخ هرم هو هامة اليوم أو غدٍ في وقت تشتد الحاجة فيه إلى كل ساعد ومعصم في خضم فتوحات الشام والعراق.

تذكر الناس المخبل، وتتابعوا على زيارته، وكلهم يبشره برسالة عمـر فينصت إليها كل مرة، وكأنه أول مـرة يسمعها. أقام أيامًا لا يذوق النوم إلا غِرارًا بعد أن حلت لهفة الشوق محل حرقة الأسى.

تهب الشمال فيستقبلها بوجهه، ويقول: ما أطيبها من ريح تهب مـن قبل شيبان، وتستحث ركابه وتأتيني بريّاه. وسرعان ما صدقت الشمـال وعدها فأتت بشيبان يحدوه الشوق حتـى أوصلته مشارف الحي. تسابق الفتيان إلـى المخبل يبشرونه بوصول ولده، وما علموا أن روحـه قد صحبـت شيبان منذ أن فصلت العـير من العذيب[1]. ولم يتمـوا بشارتهم حتى استداروا ثم انطلقوا يتبادرون شيبان. كم تمنى المخبل لو يقدر على مجارتهم فلا يسبقه أحد إلى ولده، ولكن:

النفس تأمل والأسباب عاجزة

والنفس تهلك بين اليأس والطمع

أقبـل شيبان تخب بـه مطيته، حتى وقفت به أمـام بيت والده الذي جلـس متحفزًا بساحة البيت، وقد أمسـك عصاه بكلتا يديه. حـاول أن ينيخ ناقته فلم يستطـع، وكأنما تصلبت ركبتاها من طول السـير، وأفناها التهجر والدؤوب[2]. لم يستطع الانتظار فقفز منها

---

(١) العذيـب: منزل من منازل طريق الحج الكوفي به عين عذبة وبركة ماء، وهو حد جزيرة العرب من جهة العراق، ويقع في الصحراء على بعد أربعين، كيلا جنوب النجف.

(٢) التهجـر: سير الهاجرة، وهـي منتصف النهار عند اشتداد الحـر، الدؤوب: الإلحاح في السير والمداومة عليه.

ليحتضـن أباه، الذي نهض ليقوم له فخانته قدمـاه أحوج ما كان إليهما، فلم يستطع القيام وسقط على جنبه.

كان المنظـر باعثًـا على البـكاء، فلم يتمالك أحـد عينه، بكى المخبـل فرحًا وحبـورًا، وبكى شيبان أسفًا وندمًـا، وبكى الناس رقة وحزنًا.



ب: تحقيق سبب المرض

يتضح من سياق القصة ومن استقراء ديوان المخبل أنه أصيب بمرض ازدواجية الرؤية (Diplopia) في آخر حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقد أثر هذا المرض على نفسيته كثيرًا مع تقدم سنه وضعف حركته، وقد وصفه أكثر من مرة في شعره.

وازدواجية الرؤية أو (Diplopia) هو مرض بصري يؤدي إلى رؤية صورتين لشيء واحد في الوقت ذاته، وقد تكون الصورتان فوق بعضهما أو جنبا إلى جنب. وهذا المرض مربك جدًّا في أثناء المشي والحركة، إذ يؤدي إلى اختلال التوازن، أما حال التركيز في الأشياء القريبة، فيسبب الصداع والغثيان، وربما سبب ألمًا في عضلات العين.

مع العلم أن الحالات الخفيفة من هذا المرض قد لا يصاحبها أي أعراض مرضية أخرى، وإنما تختلف الأعراض الصحية بحسب اختلاف سبب المرض، كما سنرى بعد قليل.

وقد وصف المخبل هذا المرض وصفًا دقيقًا، يبين مدى تأثره منه. تأمل قوله:

إذا قـال صحبي ياربيـع ألا تـرى

أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

فقد أنكر أصحابه ضعف بصره، وربما استدلوا على ذلك من مشيته المضطربة أو من طريقة نظره، إذ إن المصابين بهذا المرض قـد يديرون رؤوسهم بطريقة غير عاديـة، أو ينظرون بشكل جانبي بـدلًا من النظر إلى الأمـام، وقد يضطرون لتغطيـة إحدى العينين لأجـل استبعاد الصـورة المكـررة. رد المخبل على أصحابـه بإجابة حاسمة تبين سبب معاناتـه، فشكواه ليست من ضعف البصر بقدر ما هي من ازدواج رؤيته للأشيـاء. ورغم قرب الأشياء والأشخاص وقدرتـه على رؤيتها وتحديـد معالمها، إلا أنه لا يراها فرادى، بل كل شيء تتكرر صورته مرتين.

وقـد ازداد عليـه المرض في آخر حياتـه، فأصبح يرى الشخص ثلاثة أشخاص أو أكثر، فعاد أكثر تذمرًا، وأشد مرارة حتى مع حضور ابنه. يقول في قصيدة أخرى، يبدو أنها من أواخر قصائده رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومشيت باليدِ قبل رجلي خطوها

رسَـفَ المقيَّد تحت صُلبٍ أحـدبِ

فـإذا رأيـتُ الشخص قلت: ثلاثةٌ

أو واحــدٌ وأخـالُـه لم يـقـرُبِ

وقضى بنيَ الأمر لم أشعر به
وإذا شهدتُ أكون كالمتغيِّبِ

ففي هذه الأبيات يصور نفسه، وهو عاجز عن المشي على قدميه، حتى أصبح يحبو على يديه، كما يمشي من أثقلت القيود رجليه، فهو يرسف في قيوده، وهي صورة معبرة جدًّا، برغم أنها مألوفة في الشعر العربي. أما بصره فقد تدهور كثيرًا هذه المرة، فهو لا يكاد يتبين الشخص حتى لو كان قريبًا منه.

و الشاهد هنا هو إلحاحه على ذكر سبب معاناته الدائمة من ازدواجية الرؤية، التي أضعفت قدرته على التصور والحكم على الأشياء، فأثرت على عقله حتى غدا كأنه حاضر غائب يقضى في أموره وهو لا يشعر، وسواء أشهد إبرام الأمر أم غاب عنه.

ولم تطل حياته بعد ذلك، فمات في أواخر خلافة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



ج : إضاءات طبية[1]

ازدواجيــة الرؤية أو (Diplopia) هو مرض بصري نادر يشكل أقــل من ٢٪ مــن أمراض العيون بشكل عام. يــؤدي هذا المرض إلى رؤيــة صورتــين لشيء واحــد في الوقت ذاتــه، بدلًا مــن رؤية صورة واحــدة محددة المعالم. وقد يكون المرض مستمرًّا طوال الوقت، وقد يحدث في أوقات معينة أو عند النظر باتجاه معين.

أسباب المرض:

ينتج المرضــ بسبب خلل في جهاز الرؤيــة (Vision System) الــذي يتكون من أجــزاء عديدة، تتناغم فيما بينهــا بشكل متناسق لرؤيــة صــورة فردية واضحة ومحــددة المعالم. وقد تحــدث الرؤية المزدوجة في عين واحدة أو في العينين معًا، نتيجة لعدد من الأسباب المرضية، وأشهر الأسباب ما يلي:

١- تشوهــات القرنيــة وعدم انتظامها، مما يــؤدي إلى تشتيت الضــوء الداخل إلى العــين، وهذا الخلل يــؤدي إلى الرؤية المزدوجة في عــين واحدة، حيث يمكن تفاديه بتغطية العين المصابة. ومما يجدر ذكره هنا أن جفاف العين وقلة الدمع قد يؤدي إلى هذا الخلل أيضًا.

(1) http://emedicine.medscape.com/article/1214490-overview



٢- مشـكلات عدسة العين: أبرز هـذه المشكلات هو الإعتام أو الماء الأبيض (Cataracts)، إذ يؤدي إلى تشـوه الصورة التـي تدخل العين. وهذا السبـب يمكن علاجه بسهوله عن طريق الجراحة.

٣- حدوث خلـل في أداء عضلات العين: يعد الحول أحد أشهر هـذه الأسباب، لأن كل عين تشير إلى زاوية معينة تبعد عن زاويـة العين الأخرى، فيصعب على الدماغ دمج الصورتين معًـا. ومن الأسبـاب الأخـرى، ضعف العضـلات الشديد بسبـب شلل الأعصاب، أو بعض الأمراض المناعية كالوهن العضلي الشديد (Myasthenia Gravis).

٤- مشكلات أعصاب العين: قد تحدث الرؤية المزدوجة بسبب حصول ضرر في الأعصاب، التي تتحكم في حركة العين أو في العصب البصري (Optic nerve)، الذي ينقل الصورة مـن العـين إلى الدماغ. وضـرر الأعصاب قـد ينتج بسبب الجلطـات أو الأورام، وقـد يتسبـب فيـه بعضـ الأمراض كالتصلـب اللويحي. ويعـد السكر من أهـم الأسباب التي قد تسبب ضرر الأعصـاب، ومن ثم ضعف عضلات العين والرؤية المزدوجة في العينين معًا.

٥-إصابات الرأس أو أورام الدماغ، التي تؤدي إلى تلف أنسجة مركـز الرؤيـة، أو تضغط على محجر العـين، وتقيد حركة عضلاتها.

العلاج:

نظـرًا لأن مرض الرؤيــة المزدوجة قد يكـون مقدمة لأمراض عديدة أخرى، فإن العلاج ينبغي أن يتم في مراكز متخصصة تحت إشراف طاقم طبي متكامل. ويعد التشخيص السليم ومعرفة السبب الكامــن وراء المشكلة هو أهم خطـوة في عملية العلاج، وهذا الأمر يتطلــب تعاونًا كاملًا بين المريض وطبيبــه، إذ إن دقة وصف الحالة والانتبــاه لها مبكرًا عاملان حاسمان في مدى دقة التشخيص، ومن ثم العلاج.

الرؤية المزدوجة عند الأطفال:

كمــا يصاب الكبــار بالرؤية المزدوجة يصــاب الأطفال أيضًا، لكـن المشكلة تكمـن في أن الأطفــال غير قادرين علــى تقديم شرح واضح لمــا يحصل، مما قد يؤخر التشخيصـ، حتى يتطور المرض، وتصل مضاعفاته إلى مراحل متقدمة.

وأهم تلك المضاعفات هي فقدان النظر في إحدى العينين بسبب تجاهـل المخ للصور القادمة منها، والتــي تختلف كلية عن صور العين الأخرى، مما يؤدي إلى كسل العين، وقد يسبب فقدانًا دائمًا للنظر في تلك العين في حال استمرار المشكلة. ولذا لا بد أن يحرص الأبوان على اكتشاف المشكلة مبكرًا، وهنا بعض العلامات المفيدة بهذا الصدد:

١- الطفل المصاب بازدواجية الرؤية غالبًا ما يلوي عنقه بشكل مائل في أثناء النظر، أو ينظر بشكل جانبي بدلًا من النظر إلى الأمام.

٢- عند ملاحظة أن الطفل يضيق عينه في أثناء الرؤية، أو يغطي إحدى عينيه في كثير من الأحيان، ينبغي التنبه ومراجعة الطبيب المختص.

٣- يعد الحول أهم أسباب الرؤية المزدوجة شيوعًا لدى الأطفال، ويجب علاجه مبكرًا تفاديًا لضعف النظر، الذي قد يحدث في إحدى العينين في حال تأخير العلاج.



د: سر القوة صفة كامنة

صفـات الإنسان إما صفات لازمة له كامنــة فيه، وإما صفات خارجـة عنــه مباينة له. فالصفـات اللازمة هي مجمـوع مهارات الإنسان وأخلاقــه وملكاته الكامنة فيه الملازمة له، التي لا تزول إلا بــزوال الإنسان نفســه. وهي مصدر القوة الحقيقــي، الذي لا يقدر علــى استلابه عدو بخلاف الصفات الخارجة عن الإنسان من غنى أو جــاه أو منصب، التي غالبًا مــا تكون عبئًا على الإنسان عند تغير الأحوال وانقلاب الأمور.

تأمـل في سـير من قلبـت لهم الدنيــا ظهر المجــنّ يستبين لك القصد وتقف على جلية الأمر. تغيرت الدنيا على ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فذهبت وزارته، وهدمت داره، وأحرقت كتبه وهو ينظر، فقال بعزة الواثق من نفسه المعتد بعلمه:

فإن يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي

وينزل إن انزل ويدفن في قبري

وتأمل في قول المعتمد بن عباد، وقد سيق أسيرًا مغلوبًا بعد عز الملك وجاه السلطان:

إن تستلب عني الدنا	**ملكي وتسلمني الجموع**
فالقلب بين ضلوعه	**لم تسلم القلبَ الضلوع**
لم أستلب شرف الطبا	**ع أيسلب الشرف الرفيع؟**
قالوا الخضوع سياسة	**فليبد منك لهم خضوع**
وألذ من طعم الخضو	**ع على فمي السم النقيع**
سير الألى أنا منهم	**والأصل تتبعه الفروع**

فلم يبق له من أسباب العزاء وأسرار الثبات سوى ما تضمنه قلبه من شرف الطباع وكريم الخصال، وهي صفات لا تستطيع الدنيا بأكملها أن تستلبها منه، كما يقول. وأصبح الشعر مصدر سلوّه الوحيد في غربته الموحشة وسجنه الكئيب.

أجمع حكام أثينا على إعدام الحكيم سقراط بسبب فلسفته التي كانت تقوم على أساس تغيير المفاهيم الخاطئة، وتصحيح التصورات المغلوطة عن الحكم والعدل والحكمة. كان في أثناء المحاكمة هادئًا لا يلتفت إلى أحد، وكأن المعني بالمحاكمة أحد سواه. لم يكن هدوؤه تصنعًا، بل كان استغراقًا في فلسفة الحياة والموت، حتى لقد انشرح صدره حين توصل إلى أن ثمرة حياته قد نضجت، وآن للموت أن يقطفها.

وليس هذا الأمر قصرًا على حال النكبات، بل حتى عند تقدم السن وانصرام الأتراب أو حال العجز والمرض. ولك أن تتخيل البون الشاسع في حال فقدان البصر مثلًا بين صاحب المال الجاهل، وبين من أوتي علمًا وحكمة.

والمقصود أن يدخر الإنسان لنفسه شيئًا يسليه ويشد قلبه، ويعينه على الصبر والثبات حال عجزه أو تغير الدنيا عليه. وقد يكون هذا الشئ مهارة يطورها، أو ملكة ينميها، أو علمًا يحفظه، وربما كان طريقة من طرائق التفكير والتفلسف في الكون والحياة والوجود.



خاتمة

كما مـر بك عزيزي القـارئ، عرضنا في هـذا الكتاب الموجز سبـع قصص لسبـع شخصيات مـن مأثورنـا التاريخـي والأدبي، وحاولنـا جاهدين ربطها بالعلم الحديث في جوانب الطب والتربية، لعلنـا بذلـك أن نـثري المكتبـة العربية بنوعيـة جديدة مـن الكتب والبحـوث، التـي تفتح الأفـق واسعًـا لدراسات معمقـة في حضارة العرب والمسلمين.

بدأ هـذا الكتاب بقصة هـارون الرشيـد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورأينا فيها كيف أثر مرض السكر على مسار حياته، وكيف مات في سن الكهولة بسبـب واحدة من أخطر مضاعفات مرض السكر. ثم أتبعنا ذلك بشـرح طبـي موجز عن هذا المرض الشائـع في مجتمعنا نهدف من خلالـه إلـى رفع الوعي الصحي عنـد القراء. ونظرًا لمـا للرؤيا من عميـق أثـر في سياق قصة وفـاة الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقـد ألحقنا بهذا الفصـل مقالًا يعالـج قضية تعبير الرؤى، قدمنـا من خلاله قواعد عمليـة تساعـد النـاس في التفريق بين المعبر الجيـد، ومن عداه في وقت أصبح تعبير الرؤى سوقًا رائجًا.

مرت بنا بعد ذلك قصة الحمى التي أصابت المتنبي، وبينا كيف ساعدتنا بلاغة المتنبـي على التعرف على نوع الحمى، التي أصابته

وهــي الملاريا. ثم رأينا كيف اقترنت نشأته في وضع اجتماعي بئيس مع موهبته الخارقة ونفسه الوثابة، ليخرج لنا نسيجًا فريدًا، أطلقنا عليه متلازمة المتنبي.

ثم عمدنا بعد ذلك إلى فك لغز داء النزف، الذي أصاب أبناء الشاعر الكبــير ابن الرومي، وتوصلنا إلى أنــه مرض الهيموفيليا، وأشرنــا في ثنايا الحديــث إلى أثر تربية الاستحــواذ على حياة ابن الرومــي، وكيف صبغته بصبغتها المقلقة، التــي أدت به إلى التمرد أولًا، ثم العزلة الكئيبة ثانيًا.

أمــا وفــاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقــد بذلنــا الوســع للتوفيق بين النصوص الصحيحة، التي أشارت إلى سبب وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ناحيــة، وبينها وبين ما يقبله الطــب الحديث من ناحية أخرى. وقد توصلنا إلى نتيجة مفادها: أن مضاعفات سم الزرنيخ وآثاره طويلة الأمــد، قد ساهمت بشكل غــير مباشر في إضعــاف مقاومة جسده لحمى الملاريــا، حين أصابته بعد أربع سنين مــن حادثة السم التي حدثت عام خيبر.

ثــم سقنا الدلائل المتوافرة بين يدينا لبيــان: أن الغدة التي قتلت عامــر بن الطفيل، وأشــار إليها بمقولته الشهيرة التــي أصبحت مثلًا «غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية»، هي سرطان البيركت ليفوما.

أمـا قرحة العدسة أصابت أبا لهـب، فقد غلب على الظن بعد استقراء النصوص المتوافرة، أنها نوع من سرطان الجلد الليمفاوي، يدعى الورم الحبيبي الفطري.

وأخـيرًا مرت بنا معانـاة المخبل السعدي مـن ازدواج الرؤية، وبينا أثر اقتران هذا المرض مع كبر السن، وفقدان الابن على حياة الشاعر الكبير.

وهنـا ينبغـي أن أنوه إلى أمـر كنت قد أشـرت إليه في مقدمة الكتـاب، وهو أن ترتيب القصصـ إنما جاء وفقًا لدرجة الوثوق من تشخيص المرض.

وختامًـا: فإننا نأمل أن يساهم هـذا الكتاب الموجز في إضاءة بعضـ الزوايـا المظلمـة في مأثورنا الحضـاري العظيـم، وأن يكون لبنـة في مشـروع ربط حضارتنا التـي أشرقت الأرضـ بنورها منذ خمسـة عشر قرنًا بالعلم الحديث، الذي ارتقى بالبشرية في مدارج الحضارة والتقدم.

د. منصور الجابري

Email: M.ALJABRY4210@Gmail.com





ثبت المراجع والمصادر

أولًا: المصادر العربية:

١- القرآن الكريم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٢١هـ.

٢- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى.

٣- الأصفهاني، على بن الحسين.الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم الساقين وبكر عباس، دار صادر، بيروت،لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ.

٤- ابن عثيمين، محمد بن صالح. تفسير القرآن الكريم، سورة المائدة، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٣٥هـ.

٥- ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية، تحقيق: عبدالمحسن التركي، دار هجر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٦- ابن كثير، إسماعيل. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي السلامة. طبعة دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ.

٧- ابن منظور، جمال الدين محمد. لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

٨- أبو خليل، شوقي. هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٩- الآلوسي، محمود شكري. بلوغ الأرب في معرفة أخبار العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

١٠- البجاوي، علي ومحمد إبراهيم. أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٩م.

١١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت،لبنان، الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ.

١٢- البرقوقي، عبدالرحمن. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ٢٠١١م.

١٣- البيهقي، أحمد بن الحسن. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٤- الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي، تحقيق: صدقي جميل العطار، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٢٥هـ.

١٥- الدينوري، ابن قتيبة. الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، طبعة دار المعارف، القاهرة، مصر الطبعة الثانية ١٩٥٨هـ.

١٧- السامرائي، كمال. مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال، بغداد، العراق.

١٨- السيوطي، جلال الدين. تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد غسان نصوح، دار المنهاج، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٣٤هـ.

١٩- الضامن، حاتم صالح. عشرة شعراء مقلون، جامعة بغداد، العراق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢٠- الضبي، المفضل. المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة التاسعة ٢٠٠٦م.

٢١- الطبراني، سليمان بن أحمد. معجم الطبراني الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله ومحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر الطبعة الأولى ١٤١٥م.

٢٢- الطبراني، أحمد بن سليمان. معجم الطبراني الكبير، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة دار ابن تيمية، القاهرة، مصر.

٢٣- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٤- القرني، عايض بن عبدالله. إمبراطور الشعراء، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٢٨م.

٢٥- العتيبي، سهل رفاع. الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمحدثين والمخالفين، كنوز أشبيليا، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٣٠م.

٢٦- العقاد، محمود عباس. ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

٢٧- العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبدالسلام علوش، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى١٤٢٥هـ.

٢٨- المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

٢٩- المقدسي، عبدالله بن مفلح. الآداب الشرعية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، دار الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.

٣٠- المعافري، عبدالملك بن هشام. السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، لبنان.

٣١- النسائي، أحمد بن شعيب. سنن النسائي، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٣٢- النووي، محيي الدين. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق: خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة ١٤٢٥هـ.

ثانيا: المصادر والمراجع الإنجليزية:

- Dangleben NL, Skibola CF, Smith MT. Arsenic immunotoxicity: a review. Environ Health. 2013;12(1):73.
- Parveen Kumar and Michael L Clark. Kumar and Clark's Clinical Medicine, 8th Edition: 2012 Elsevier publishing CO, London,UK.
- Swerdlow SH (2008) International Agency for Research on Cancer, World Health Organization WHO Classification of Tumours of Haematopoietic and Lymphoid Tissues. IARC Press, Lyon, France.
- V. Hoffbrand, D. Catovsky, E. Tuddenham and A. Green. Postgraduate Haematology, Sixth edition: 2011 Blackwell Publishing Ltd.
- Wiwanitkit V. Headache and malaria: a brief review. Acta Neurol Taiwan. 2009 Mar; 18(1):56-9.
- http://emedicine.medscape.com/article/1214490-overview. Accessed on June 2016.
- http://healthh.com/mycosis-fungoides. Accessed on June 2016.
- http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar. Accessed on June 2016.
- http://www.atsdr.cdc.gov. Arsenic Toxicity. Accessed on June 2016.
- http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs372/ar. Accessed on June 2016.
- http://www.cdc.gov/malaria/new_info/2014/malariaegypt.htm. Accessed on May 2016.
- http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs094/ar. Accessed on May 2016.

